

الحياة وبدوات الاجيال الصاعدة

تمر بالانسان ساعات او ايام لا يجد فيها طعما للحياة او معنى مهاً . ومع ذلك فغريزة الحياه في مجموعها غريزة لذيذة عند اكثر الناس . وقد يصدق ذلك على مرحلة الشباب في حياة الانسان اكثر مما يصدق على المراحل التالية .

ويفكر المرء في سر تركيب الحياة على سطح هذه الكرة الارضية او خارجها ليربط بين الحياة على الارض وبين ما تكون قد جاءت منه ، فيرتد الفكر حسيرا لا ينفتح له مغلق . فهذا الكون الذي يصل الينا الضوء منه بعد مليون سنة او ملايين من انبعاثه من نجم فيه ، كون هائل غير مفهوم ، دع عنك مصدر الحياة فيه .

ومع ذلك فنحن هنا ، والقضاء على الحياة امر يعز على الاحياء .

فمن خصائص الحياة انها تنشطر وتندفع وتتكاثر وترتفع . لكأن فيها سر نشوئها وتجددها ، فلا تميل الى التلاشي والعدم .

ومن خصائص هذه الحياة ايضا ، كما وجدناها على الارض ، انها ايجابية النزعة راقية الرغبة تنتعش بالاندفاع في هذا الاتجاه وتخبو بالمقاومة المضادة في الاتجاه المعاكس .

واكبر سر خفي على كثير من الناس هو هذا ، فالحق والخير والجمال قيم وان تغلبت عليها اكثر الاحيان الى الآن في فترات الحياة المتطاولة « قيم » الانانية والتسلط والكبت ، فان المحصلة الناتجة ، اذا صح التعبير ، هي اندفاع الحياة البشرية على وجه الارض الى امام ، كماء النبع تعوق انبثاقه من مكان مدة تطول او تقصر ، فاذا هو ينبثق من مكان آخر يقرب او يبعد .

والحياة على الارض فيما يبدو كل متكامل . فلذة الانسان تأتي من الاكتفاء البدني كما تأتي من الاكتفاء العقلي . ومظاهر الحياة المنبثقة عن هذا متعددة الجوانب ، ولكن التوازن بينها مطلوب . فاذا رأيت الجيل يندفع يوما نحو اشباع حاجات البدن او المادة فلا تلبث ان تجده قد ازور عن ذلك الى اشباع حاجات النفس أو العقل ... الخ . والذي يتراءى لنا انه كلما مال احد بالحياة الى السطحية والسرعة ، انعطفت بعنف عما قريب بعدئذ ، وكأنها التيار المتدفق حول عن مجراه . والنزعة دائما نحو الافضل والاكمل والاعلى . لكأن الحياة مبصرة تستهدف هدفا ساميا ، فاذا اتجه جيل او فرد يعارض هذه النزعة بدا عليه ما ينفر ويزعج ويعوق ، واذا اتجه معه انسابت الحياة مشرقة رضية تنطوي على ما فطرت عليه من التقدم والرقي .

على ضوء هذا يسهل تحليل الظاهرات الخطرة في حياة الجيل العربي الجديد . ومع اننا لا ننتقص التطوّرات الجديدة في اجزاء بارزة من العالم العربي ، فاننا نلاحظ انها انما تتم على ايدي افراد قلائل يعانون ما يعانون من شرود فئات من الجيل « الصاعد » وشذوذها وكفرانها . وسمات هذا الجيل ادهى وابلغ في بعض البلاد « الراقية » . ويكفي مثلا على ما اقول الوجودية والتجريد .

اما الاتجاه الايجابي الذي اشرت اليه ، والذي سيقضي على بدوات الشذوذ الحاضر والكفران ، فقد صادفت اشارة اليه في مطالعاتي مؤخرا في كلمة جميلة للمؤرخ الفلسفي الاميركي ول ديورنت (وهو في الثمانين من عمره) تصلح تتمة وتبسيطا لما شرحت . قال الكاتب :

« ان الاعم الاغلب من ادبنا وفلسفتنا الاجتماعية بعد عام ١٨٥٠ انما كان صدى للثورة على السلطة ، ثورة الابن على ابيه ، والتلميذ على معلمه . ولقد شاركت سنين عديدة في تلك الثورة الفردية ، ولست نادما على ذلك ، فان وظيفة الشبان هي ان يدافعوا عن التجديد والحرية ، ووظيفة الكبار ان يدافعوا عن النظام والتقاليد ، ووظيفة المتوسطين في الاعمار ان يتخذوا سبيلا وسطا بين هذين . اما الآن وقد بلغت الكبر انا ايضا ، فاني اتساءل عما اذا بلغت الحرب التي خضتها مدى اكثر مما يجب . نريد ان نقول متواضعين ، ولكن معلنين ، اننا نقاوم الفساد في السياسة ، والختل في الاعمال ، والخيانة في الزوجية ، والفسق في الادب ، والخشونة في اللغة ، والخلط في الموسيقى والخواء في الفن » .

عمان — محمد اديب العامري

فهد العسكر الشاعر الثائر

بقلم قدري قلعجي

* * *

رافق البؤس فهد العسكر في حياته وبعد مماته ، وكان حرمانه بعد ان امحى ظله عن صدر البسيطة أشد من حرمانه وهو على قيد الحياه .. اذ امتدت الايدي القاسية الى بنات افكاره فأخمدت انفاسها حاكمة عليها بالاعدام حرقا .. وهكذا اكلت النار خير ما في الشاعر ، ولم تفلت من الاعدام الا وريقات قلائل احتفظ بها اخوانه وخلانه..

ولد فهد عام ١٣٣٢ هـ ، وتلقى دروسه الاولية في المدرسة الاحمدية في الكويت ، ولبث في تلك المدرسة قرابة عشره أعوام ، ثم اتجه بكليته شطر القريض يعب من معين فرسانه السابقين حتى اسلست له القافية . ولما كان المجتمع الكويتي آنذاك في بدء نهضته فقد اتجه صوب المملكة العربية السعودية ، متزودا بخريدة من بنات افكاره انشدها العاهل السعودي الملك عبد العزيز ، فطرب لها اشد الطرب ، واجازه عليها ، وعرض عليه وظيفة في القوات المسلحة . ولكن حامل اليراع أبى ان يكون في خدمة السيف ، وقال للملك :

ـ انا من حملة الاقلام لا من حملة السلاح !.

ثم عاد الى مسقط راسه في الكويت يعيش من يسار والده ، ولكن لم يلبث ان فقده وبدد ما اصابه من الميراث ، مما كاد يسيء الى علاقته باخوته . وكانت ثالثة الاثافي ان كف بصره ، ثم اصيب بقرحة في فكه كانت من اسباب وفاته ، وفاضت روحه الى بارئها عام ١٩٥١ .

لقد شب فهد العسكر على التمسك باهداب القديم والجنوح الى التفكير الديني ، ولكنه ما لبث بعد فترة يسيرة حتى انطلق في مضمار التحرر ، ودخل مرحلة جديدة من حياته الادبية جعلته يمس بشبا يراعه سائر اطراف الحياة، فكتب الى جانب الشعر الوطني والقومي الخمريات والغزليات ، والمجتمع الكويتي كان ما يزال في اول مراحل حياته الجديدة ، مطبوعا على التزمت ، وفي حالة اقرب الى الجمود ، وقد صوره احسن تصوير مؤرخ الكويت الاول عبد العزيز الرشيد الذي قال فيه :

« كانت الكويت الى ما قبل عشرين عاما غارقة في بحر الجمود ، منغمسة في حماة التأخر ، ولا اثر للحركة العلمية والفكرية فيها ، وكان الشائع بين اهلها اذ ذاك مبادىء الفقه والعربية والخط المتوسط والحساب البسيط ، وما عدا هذا من العلوم العصرية والمشاريع النافعة والأراء الحية فليس لها اثر بينهم ، ولو وجد شيء منها اذ ذاك لنفروا منه ومن اهله النفور العظيم ، ولرموا متعاطيه بالزندقة والالحاد ، ولا غرو فالبعد عن البلاد المتمدنة وعدم الاختلاط برجال مفكرين وعلماء مخلصين ، ووجود اذناب ينتسبون للعلم بهتانا وزورا ، كل ذلك من العوامل القوية لبقاء القديم على قدمه ، وتأخر الشعوب في ميدان الكفاح ، وقد ظلت الكويت تلك المدة الطويلة واهلها يتخبطون بجهلهم الدامس، فكانوا يرون الصغير في العلم كبيرا ، والحقير في الادب عظيما .. »

لقد كان من البديهي ، وهذه حالة الكويت الاجتماعية ، ان يصطدم الشاعر النازع الى التحرر ، ببيئته ومجتمعه ، وقد نشأ عن هذا الاصطدام ان اتهم الرجل بالزندقة والخروج على قواعد الدين . وكان منه ان رفع لواء التحدي بشيء من الانفلاتية ، فعكف على الخمرة يعبها ويبثها همومه واحزانه النفسية ، مازجا سلافة الخمر باكسير الشعر ، مناجيا الليل ، مساهرا كوكبه الوضاء الذي ان لم يلمحه ببصره فقد كان يحياه ببصيرته :

صهرت في قدح الصهباء أحزاني	وصفت من ذوبها شعري والحاني
وبـت في غلس الظلماء ارسلها	من غور روحي ومن اعماق وجداني
يا ليل ضاقت بشكواي الصدور وما	ضاقت بغل واحقاد واضغان
فجئت اشكو اليك المرجفين وهم ،	لا در درهم ، اسباب خذلاني
يا ليل والروح عطشى وهي هائمة	هل في المجرة من ري لعطشان
يا ليل والنفس غرقى وهي حائرة	فهل بنجمك من زاد لغرقان
يا ليل والعين سهرى وهي دامعة	فهل بنجمك من راث لسهران
يا ليل حسبي وصدري ملؤه ضرم	تلك البقية فافتح صدرك الحاني
فكم به لست روحي العزاء وقد	اودعته سر آلامي واشجاني
يا ليل اين الكرى بل اين طيفهم	فكم بوادي الكرى يا ليل واساني
وكم هفت وصبت نفسي الى حلم	مجنح راقص في النور نشوان
حلم يرف على لألأ مبسمها	ليلا ويصدر صبحا غير صديان
يا ساقي الخمر، لا شلت يداك، أدر	بنت النخيل فان الصحو اضناني
وانضح بها كبدا نهب الجوى، وأثر	بالله غافي احساسي وايماني
فكم على ضوئها الفضي من صور	شتى تجلت لعيني ذات الوان
ورحت استعرض الماضي فاطربني	بها ومن ثم اشجاني وأبكاني
حتى سكبت على ذكراه اغنية	من وحي بؤسي ومن الهام حرماني

ويقول الاستاذ احمد الشرباصي : « يعتبر فهد العسكر ممثلا لمرحلة الانتقال من الشعر القديم الى الشعر الحديث في الكويت، ويعتبر رجلا فنيا زاد غليانه في مجتمع معروف بالهدوء والمحافظة فقذف بحميمه ، فكان منه الخير الذي صحبه بعض السوء . وكان فهد ثورة عنيفة عارمة في وجه التقاليد والعرف والعادات ، وليس هينا في مثل بيئته ان يتحدث شاعر عن الجمال كما تحدث ، او يصف السلاف كما وصف ، أو يهاجم الموروث كما هاجم .. »

ويقول عبد الله زكريا الانصاري في الكتاب الذي وضعه عنه : « ومدرسة فهد العسكر تمتاز بالتحرر الفكري ، والثورة على التقاليد والعادات ، والسير بالشعر الى الحرية المطلقة التي لا تعترف بقيود ، ولا تؤمن بالمحافظة على

* يتابع الكاتب بهذا الفصل سلسلة من الابحاث عن ادباء الخليج العربي ، ويسره ان يتلقى من ابناء هذه المنطقة الفنية بالكفايات ، آثار ادبائهم وسير حياتهم وكل ما يساعد على القاء النور على تلك الطاقات المنسية والمواهب المجهولة .

الاوضاع الموروثة . بل انها احيانا قد تشذ شذوذا ظاهرا في تطرفها واندفاعها الى هدم الحدود التي اوجدتها البيئة وأبقت عليها المحافظة على التقاليد القديمة .. وكان لهذه المدرسة انصار وخصوم ، لكن انصار محدودون ، اما الخصوم فاكثرية ساحقة . ولا شك ان مدرسة شأنها الثورة على القديم ، والتهجم على التعصب ، والتطرف في طلب تغيير الوضع ، في بيئة محافظة متمسكة بتقاليدها وعاداتها متعصبة للموروث من هذه التقاليد والعادات ، لا شك أن هذه المدرسة ستحدث خصوما كثيرين ، واعداء يتحينون لها الفرص للقضاء على البدع التي تنادي بها ، فليس من اليسير على المرء ان تأتيه لترده عن امر من الامور التي الفها بالقوة والبأس ، وليس من الهين على الانسان ان تثنيه عن آراء شب عليها وتشربتها روحه ، بجرة قلم ، ولا سيما اذا كان أكثر هؤلاء الخصوم من الذين تثقفوا ثقافة تتيح لهم الاطلاع على تطور الحياة ، ومعرفة معنى الحرية الفكرية » .

ويبدو ان ام الشاعر كانت في صف مناوئيه ومعارضيه ، ما تنفك تنحو عليه باللائمة ، وتعين الدهر عليه ، وان تلك التي نثر كبده شعراً يفيض بتقديس هواها قد اجتوته ، بعد ان دب المرض في أوصاله ، وبعد انطفاء نور باصرته . ولذا كان سجين الدنيا ، سجين داره ، سجين آلامه واشجانه ، يجأر بالشكوى ، رازحا تحت ثقل البلوى ، يأكل قلبه الشك ، ويرين على نفسه شبح التشاؤم ، ويعبر عن مأساته في قصائد من اروع الشعر وأسماه ، كهذه القصيدة التي يخاطب امه في مطلعها بلوعة ممزقة :

كفي الملام وعلليني   فالشك اودى باليقين
وتناهبت كبدي الشجون   فمن مجيري من شجوني
وامضني الداء العياء   فمن مغيثي من معيني
أين التي خلقت لتهوا   ني وباتت تجتويني
أماه قد غلب الاسى   كفي الملام وعلليني
الله يا اماه في   ترفقي لا تعذليني
حطمت روحي بالعتا   ب فامسكينه او ذريني
انا شاعر ، انا بائس ،   انا مستهام ، فاعذريني
انا من حنيني في جحيم،   آه من حر الحنين
انا تائه في غيهب   شبح الردى فيه قريني
ضاقت بي الدنيا دعيني   اندب الماضي دعيني
وأنا السجين بعقر داري   فاسمعي شكوى السجين
بهزال جسمي ، باصفراري،   بالتجعد ، بالغضون

ولكن كأس الشاعر ما زالت مترعة ، ملأى ليس من بنت الكرمة ، وانما من اكسير الالم وعصارة المصاب التي الهبت منه الفؤاد ، وعلقت بخاطره هواجس شعرية هي من عالم الطبيعة سقسقة الجدول ، وتفتح الزهر ، وحفيف الغصون ، وخطور الريح ، محاكاة لروض شباب الشاعر ايام كان يرفل في صباه ، تلك الروضة التي لم تستسق الغمام وقد اخضر بها فنن الايام ، اذ يعيش الشاعر بفردوس هواه ونعيم حبه :

قومي اسمعي يا بنت جاري   شكوى الهزار الى الهزار
شكوى الحبيس المستجير   من الطليق المستطار
شكوى صريع الكأس كا   س الصعاب لا كأس العقار
لله ما لاقى وكا   بد في جحيم الادكار
ايام كنا والكواشـ   ـح هجع خلف الستار
والسعد خدن والصبا   ريان في قرب المزار
لا روضه استسقى السما   ء ولا خمائله عواري
وزمام من اهواه في   اليمنى وكأسي في يساري
لا اشتكي برح الصدو   د ولم اذق ألم الخمار
فبذاك تجنيح المنى   وبتلك اطفاء الاوار
من جلنار خدوده   نقلي ومن آس العذار
وأقاح ثغر ، كم نظمت   ببنته اكليل غار

علما ان ما نظمه الشاعر من اكاليل غار الوطنية يكاد يذوي غار شعره الغنائي الذاتي على ما فيه من نسغ الحيوية ونضارة الحياة . وكما كانت صورة الوطن مختلطة في مخيلة ابن الرومي برؤى ذكرياته ، وايام طفولته وشبابه ، وفرحه ومرحه ، ومجتلى صباه ، ونوار شبابه ، حيث يقول :

وطن قضيت به الشبيبة والصبا   ولبست ثوب العيش وهو جديد

فكذلك هي صورة الوطن لدى شاعرنا الكبير ، على ان الوان ريشة ابن الرومي على عظمته ، وعلو كعبه في عالم القريض ، تبدو باهتة اذا ما قيست بالوان شاعرنا وصوره في هذا الميدان .

وما دمنا قد قرنا صورة الوطن لدى شاعرينا القديم والحديث ، يكون تشبيها صحيحا واقعيا منصفا اذا ما نقلنا لوحة الطبيعة التي جادت بها ريشة ابن الرومي بوصف قوس قزح ، من مكانها في محراب الوجود الى هيكل النفس ، ورددناها خيوطا وظلالا لهواجس الشاعر ، واحلام رؤاه ، ومطارح وهمه ، فاذا هي صورة الوطن لدى شاعرنا المعاصر :

ولهان قد طبع الحنين بذهنه   صورا ، فدعه غارقا يتخيل
صور مجنحة بريشة وهمه   تفري ، وتدبر في الخيال وتقبل
منها اطلت ذكريات حلوة   بيض ، يقص رؤاه وهي تؤول
حفت بها الآمال سكرى والمنى   ودنت فكاد يضمها فتقبل
فهنا الطفولة والصبا، وهنا الهوى،   وهناك ملعبه ، وهذا المنزل
وهنا الاحبة ودعوها ههنا   ومضى وراح بحسنها يتغزل

وتتم هذه اللوحة باستجلاء مستقبل الوطن ، باسما مهللا ، اغرودة في فم الزمن ، على تجهم واقع الشاعر وشجاه ، ويندفع بجليل حلمه ، ذائدا عنه طيف الشكوك ، عائشا خفقات قلب اليقين ، في رعشات روح المجد ، مترجمة الى اهازيج عرس الطبيعة :

نشوان اذ اصغى باذن خياله   والوهم يملي ، والوداد يسجل
والوجد يرقص في قرارة روحه   والشوق يعزف ، والفؤاد يرتل
فشدا له ناي ، وغنى شاعر ،   وترنمت ورق ، وصفق جدول
وتساءلت أم ، وذكر والد ،   ودعا اخو روح ، وأمن محفل
واستفسرت اخت، ونادت طفلة،   والكل منهم شفه ما يحمل
دنيا من الاوهام ، غاب سويعة   فيها ، وعاد وقلبه يتململ
متفائل لا اليأس يعرف مدخلا   لفؤاده -وهو السجي- فيدخل
صرع الشكوك بحزمه ويقينه   ومن الوساوس ما يهز ويقتل

فاسمعـــه يا هذا يحيـي موطنـا في جانحيـــه لـه المقـام الاول :
وطني فديتك، عش ودم واسلم وطب فدعائـم السلم القريـب ستهـدل
والمجد باسمك يا ربوع مسبـــح ، والفخر يهتف ، والزمـــان يهلـل

ولكن صورة الوطن لم يتنزلها شاعرنا رؤى حالمة فقط ، ولا الوانا زاهية فحسب ، وانمـا تختلـط كذلـك بمرير ذكرياته ، نتيجة لما يصدم الشاعر الحر في بيئة محافظـة هي بمثابة السجن لطليق روحه :

وطني وادت بك الشباب ، وكل مـا ملكت يميني
وقبرت فيك مواهبي ، واستنزفت غللي شؤونـي
وكسرت كاسي بعد ما ذابـت باحشائي لحوني
وسكبتها شعرا رثيت به منـى الـروح الحزين
وطويتها صحفا ضننـت بها ، وما انا بالضنـين
ورجعـت صفر الكـف ، منطويا علـى سر دفـين
فلا أنت يا وطني المدين ، وما هـزارك بالمـدين

وحديث الشعر الوطني في قوافي فهد العسكر حديـث ذو شجون وصور مختلفة، منها الزاهي الخاطر بحلل الامل، ومنها القاتم الكثيف الظلال ، كما رأينا ، لكن خير صوره للوطن والمواطن ما قدستها روح الشهيد ، وباركتها جراحه، في ذلك الجندي الذي يعرف انه سائر الى حتفه ، طارق باب منيته ، لكنه يمشي غير هيـاب ولا وجـل ، لا يعرف التردد والتخاذل والانتكاس ، تتراقص في مخيلته اشباح رؤياه ، لان ما يعتلج في اعماقه من الشوق فوق ما نتصور ، اكبر مما تطيقه شحنة روحنا التي هي مـن طـين وماء ، وليست روح الشهيد الاقدس جذوة انعكست في الغبراء آية من آي السماء . واذا كان في المستطاع كبح اعتى الاعاصير واعنف التيارات ، فهيهات هيهات اخماد نفس واحد من ضرام الشوق الذي يجتاح روح الشهيد ، ذلك لان المجد هواه ، ومن كان المجد هواه ومثله الاعلى ، اندفع الى حومة الصراع فغالب الموت وقهر الفناء ، وثوى خالدا في تربة وطنه الحبيب :

ودع الاهل والحمى والمغانـي مدنف القلب في هوى الاوطان
سمع الحق حين نادى : الم يا ن ؟ فلباه غـير ما متوانـي
وهفت روحه الى مذبح الحق وزف القربـــان للميـدان
حيـث اخوانـه ، وكم جمع الميدان شمـــل الاخـوان بالاخـوان
باسم للـرؤى ، وكـم اطبـق الجفن ، فطافت بطرفـه الوسنان
ولاشبـاح وجده رقصـات تحـت أضلاعـه على الخفقـان
وضرام الاشـواق في جانحيـه يتلظى علـى أعـز الامـانـي

عشق المجـد ، والهـوى فكرة تنمو وتسمو بالـروح والوجـدان
يتخطـى الصعـاب غـير مبال بزفـير الآلات والنـــيران
وزئـير الحديــد في اذنيه شدو قيثارة ، ورجع مثان
وانــين الجرحى وحشرجة المو تى هتاف ، لا عاش كل جبان
ويزيد الملاح في ثورة اليـــم نشـاطـا ، مهـــارة الربـــان

اي بـأس كبأسـه حينما ثـا ر بوجـه الاعـداء كالبركـان
ثـورة زلزلـت قلوبـا واروا حا فباء العـدو بالخـذلان
ان للحق صولة تصرع الظلم ، وتـودي بالغـي والطغيـان
وجنـودا تمدهم قوة الله ، ويرعاهم بعـــين الحنـان
وجـلالا ملء النفـوس تجلى بثبـات الشيـوخ والشبـان
وجمـالا جـواه اسمى وسام رصعته الجـروح بالمرجـان
ايه يا ابن الحركة البكر ، أبلي ت ، فان يهدمـوا فانت الباني

ان قصائد فهد الوطنية على قلتها ، من الخرائد التـي تصور كل هاجسة من هواجس الانسان الحر الشريـف النائي عن وطنه حنينا لملاهيه ومرابعه ، او الذائـد عنـه المكافح دونه كفاح المجاهدين الابرار ، ولو جسم الوطـن وانطلق بلغة الصبابة والحنين لم ينطق باروع وابدع مـن قوافي فهد !....

قدري قلعجي

الملاح النازح

أيرسو على الشط الامـين سفيني ويجلو ظــلام الشك نور يقيني ؟
نشرت شراع الصبر والريح ساكن فسارت سفيني خلف كل سفـين
الا يا نسيم البحر داعب شراعهـا وسابق الى شط الرجاء حنينـي
أشارف احلامـي على مرفأ الهوى تشع كاضـواء المنـارة دونـي
ولكـن امواجـا من البـين رعنني فاغرقن ايناسي بفيـض شئونـي
رويدك يـا نفسي فيـا رب نسمة تهـب رخاء بعـد طـول سكـون
وتدنـي رجـاء عز صبري حيـاله ويرسو على الشط الامين سفيني !!

القاهرة

سلامه خاطر

حدودك الشمس

القيت في ذكر المغترب اللبناني كرم الراسي الذي أنار بلدته بالكهرباء والعلم وهو صاحب اكبر معامل للورق في البرازيل .

* * *

للمجد ما انت ضاق الافق او رحبا   هيهات ترضى بغير المجد مطلبا
لبنان لست الهضاب الشم سامقة   وانما انت عزم طاول الشهبا
حدودك الشمس لا بيد ولا اكم   فحيثما اشرقت اطلعت مغتربا
اعطيت لا تبتغي اجرا ولا بدلا   طبيعة الخير ان يعطي وان يهبا
فما تدافع موج في شواطئها   الا ليجري على آفاقها سحبا
وما تناثر طل في ازاهرها   الا ليسكب في اكوابها حببا
طبيعة الخير ان ينهل فهو ندى   حينا وحينا يكون الوابل اللجبا
فتى المكارم لم تنسب لدوحتها   الا لانك كنت المرع الخصبا
ما حياة الغصن ان تهوى الثمار به   للارض حتى يصيب الضر والعطبا
ما انبل الجود يعني كل تضحية   واحقر الجود يعني الغم والحربا
فرب لقمة عيش نغصت شبعا   ورب بدرة مال افسدت اربا
فتى المكارم حسب المرء عارفة   ان يستحيل الدجى في كفه لهبا
كم مدلج زحزحت يمناك ظلمته   وطالب نال من يسراك ما طلبا
يدان للفضل هذي بددت حلكا   وتلك مدت الى عرش النهى سببا
اعطيت افضل ما تصبو النفوس له   فما اعزك معطاء ومكتسبا
سجية «الكرم (١) الراسي» على شمم   اما تدفق في بطحائها صببا
فتى المكارم اقصى ما يراد بها   ان تنشد الخير مرجوا ومرتقبا
ما شدت مصنع قرطاس على اجم   الا لانك تهوى العلم والادبا
لم يفجع الغاب ان حولت ايكتها   صحائف الوحي تتلو الآية العجبا
سيان في شرعها شاد على فنن   وملهم اسكر الدنيا بما سكبا
خمائل «السقي (٢)» كم من شاعر غرد   غنى جمالك مشبوب الهوى طربا
ابناؤك الصيد من عز القريض بهم   وشيد العلم في اكنافهم قببا
هم «الشواهين (٣)» طارت كل ناحية   للذود عن ارزها ما ناعب نعبا
«عيون (٤) لبنان» طاب الورد فارتقبي   قوافلا تتشكى الظمء والوصبا
قد آن للركب ان يطوي الشراع الى   مناهل العز لاح النجم او غربا

وديع ديب

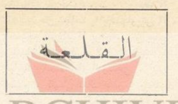
---

(١) اسم الفقيد . (٢) ابل السقي . (٣) اشارة الى شاهين بك مكاريوس احد رجال الصحافة العربية ابان النهضة في مصر وهو من البلدة ذاتها . (٣) يقصد بها مرجعيون .

.. بعد العصر . الشمس تغمق وتقتم بسرعة . ولون الرمال الاصفر يغمق . وقبل ان تسقط الشمس . تزداد البرودة . والمعطف الاسود لم يعد يفلح في تدفئة جسمي . وصفر البروجي . وجاءوا . الغبار فوق وجوههم . الدماء تنزف من جروح الايدي . واقدام من بليت احذيتهم وقفوا صفا متهالكا . جاء الضابط النوبتجي . وقف بعيدا عن الصاري . سار بجانب السياج ودار نصف دورة واقتربت منه . شددت نفسي تمام ؟ تمام .. وانصرفوا . وصفرت الريح في الفناء . واهتز النخيل . وشوش السعف . واصوات همس تنبعث من المبنى والنوافذ الضيقة في الجدار الضخم المرتفع . بقع سوداء مربعة . والسماء بها نجوم كثيرة تلمع . في كل مكان . وفي الشمال ثلاثة نجوم على خط واحد اراهم كل ليلة . وسكسكة في الظلام . وصوت اقدام اقتربت . ويد وضعت فوق كتفي . ما لك اليوم لم تكن عاديا ؟؟ غضضت طرف شاربي واشرت بطرف اصبعي الى السياج . واسوار السلك . واكشاك الجنود . ازداد عددها . ما هي التي ازداد عددها ؟؟

هذه الاسوار يا حضرة الضابط . ابدا كما هي . بل انها لا لزوم لها من تظنه يهرب من هنا ؟؟

هل تحلم يا باشجاويش السياج هي هي كذلك الاسلاك والاكشاك . لقد رأيتها تملأ الرمال يا حضرة الضابط . حتى الهواء به سلك شائك مفتت . باه .. يبدو ان اشرافك على طابور قطع الحجارة قد ارهقك . لن تقف الليلة في العراء ستكون نوبتك داخل عنبر الدور الاول . ولم ارد . وليتني اجبته . وبقيت في العراء . الصمت في الخارج عميق مخيف . بارد . لكنه افضل من هذا القبر . واصوات النائمين . وكل شيء هنا جديد . وهل ارى العنابل لاول مرة ؟؟ ياه كأني لم اعش فيها قبل ذلك ابدا . من السقف المغطى بالعنكبوت حتى الارض المبلطة ببلاط كبير مربع يفصله عن بعضه شقوق يملؤها التراب والحشرات . والحجرات . والنوافذ . حتى الهواء الذي يدخل صدري . مسامير . اسياخ . ثقيل كالجبل . ولا احد منهم مستيقظ . كل المساجين نيام . نيام . النهار كله يدبون في الجبل .. لا .. كلنا ندب في الجبل .. لم اقل هم ؟؟ .. الفرق .. يمسكون بفؤوس ومعاول .. ونحن بكرابيج وبنادق .. اعمل يا ولد انت وهو .. اعملوا يا كلاب .. يا .. يا .. وما الذي جرى لك يا باشجاويش ؟ الجو خانق والهواء فاسد .. والعراء افضل . وما الفرق ؟؟ صحيح . ما الفرق ؟؟ حتى السماء هنا سجن .



بقلم جمال الغيطاني

والهواء كله قلعة . لم اشرف على هذا العنبر الا مرات . في احداها . كان هذا المصباح المعلق . يرسل ضوءا اقوى مما هو عليه الان . ناموا كلهم .. وبين الحين والحين تزحف الى صدري رغبة في ايقاظهم جميعا . واروح الى الممر الضيق الفاصل بين الزنزانات .. اصحوا .. اصحوا يا أولاد الكلب .. عد ..

وتصرخ الحناجر المتسلخة .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .. اربعة .. سبعة .. عشرة ..

.. يا اولاد الكلب صوتكم منخفض . عد انت وهو من جديد . حتى تصل اصواتهم الى درجة الصريخ . ناموا .. وينامون .. وتصلصل القيود .



وتزوغ العيون الصفر . اصحوا ناموا . ناموا . اصحوا .. يا باشجاويش . لماذا فعلت ذلك ؟؟ تسلية ؟؟ العنبر فيه ستون زنزانة . وكل زنزانة بها خمسة . والانفاس فاسدة . واصوات شخير تعلو موتى . وفي آخر مرة صرخ شاب في رقم عشرة . صراخه مزعج . صرخ . صرخ . اعملوا معروفا .. انا اموت . الخراج رائحته نتنة لا تطاق . اعملوا معروفا .. اموت .. خرجت من فمه الفاظ كثيرة لا معنى لها وبدا وجهه الصغير مزعجا منفرا وسقط الكاب الازرق نادى امه واباه . ونظروا كلهم من القضبان . لم يتكلموا . عندما يتعذب زميل لهم لا يتكلمون . يصمتون . لكن صمتهم خطير . الصمت الفاصل بين البرق والرعد . وجاء العساكر واخرجوه وضربوه . انا ركلته .

وعندما انطرح على ظهره .. آه .. وجهه الى السماء . الخراج في عنقه اختلط بالدم .. خوخة كبيرة متعفنة .. آه يا باشجاويش .. كالطفل الصغير . وجهه طيب بريء . بريء والله . رغم العين التي تحولت الى كتلة زرقاء . لون التوتيا . آه .. وانا لي طفل . بعيد . تفصلني عنه الرمال والاكشاك . ولا اراه الا مرات . القلعة بعيدة عن الناس والبيوت والكلاب . والقطط . حولي الزنزانات . والسياج . والاكشاك . وجدران القلعة القديمة . الصماء . والحجرة التي حبس فيها الشاب بمفرده . واخرجوه . وضعوه وكوموا فوقه كمية رمل . وحجر .

انت مثلهم يا باشجاويش ..

آه ..

مثلهم يا باشجاويش .. آه .. منهم .. منهم .

لن اخرج . برد . والقلعة تظهر كتلة هائلة من السواد . وكشاف الكشك ينبعث منه نور . نار . تمسح . تامس . الرمال والسياج . والمبنى . انا مرهق . وهم مرهقون لا . كلنا مرهقون يا باشجاويش ؟؟ لا .. لن اوقظهم .. لن اتسلى . وسلسلة

المفاتيح بها اكثر من مائة مفتاح . لن اهزها . فليناموا يا حزمة المفاتيح . ليتني اترك . ومرة واحدة فارقتك فيها . الهواء عنيف . الصاري يهتز . ساقوا شابا . وربطوه . والكرباج له سبع شعب . وطابور المساجين يقف . ليروا ..

صاح الضابط .

صرخ الضابط .

يدي ترتفع وتخفض .

مجاري دم تتفتح على ظهره العريض ..

سقط الراس .. سقط الراس . تطلع المساجين . استداروا ليبعدوا عن المنظر ..

دارت العصي فيهم .. والكرابيج .. والجياد ..

ولم ينظروا ابدا .. ابدا ..

جلدت الشاب يا باشجاويش . ومات الشاب يا باشجاويش .. وطبعا حزن اهله يا باشجاويش ..

آه يا باشجاويش . لم .. لم .. يا باشجاويش ؟؟

..عواء . صوت عواء . بدوي . ينبعث من جوف الصحراء . طويل عميق . تخطو فوق الرمال . آلاف الذئاب . وفي القلعة الف ثعبان .. وعقارب .. ثعابين طويلة منتفخة العنق . لسانها مشقوق . بلدتي لا تعرف الثعابين الكبيرة . هناك شمس حقيقية . وخبز ساخن .. وفرن بيتي الطيني . وامراتي . الاولاد كبروا . نسيت صوتهم . من مدة لم اسافر . وهناك السهر لذيذ . خص البوص . وبراد الشاي والفحم . والموقد . والليل . والهدوء . هنا .. الصمت موت . خوف . اصفر كركم .

... صوت ..

.. صوت انين . من اي زنزانة ؟؟ امشي بحذر . من اي زنزانة ؟؟ الثالثة ؟؟

انبعث مرة اخرى . سانظر من القضبان . وعيناي تريان في الظلام . شخص ملتصق بالجدار . يتالم ..

ـ هل تعاني الما .. ما لك ؟؟

يستدير . وجهه تحت شعاع المصباح المعلق في الطرقة .هو بعينه . امرني الضابط في الصباح ..

اجلده خمس جلدات ..

وفي الطريق نظر الي .. لم يصرخ عندما ربطناه الى الخشبة . رآني وعرفني . فمه مفتوح . بجواره كتاب . هل منظري مفزع ؟؟ يحملق مذعورا .

ـ سبعة .. رقمي سبعة ..

ـ آه .ـ .. ـ .. سبعة ..

الصدى وصراخ الشاب . منظره . دجاجة فوق عنقها سكين محمى . صحا كل من في الزنزانة . همهمات . واحد يتكلم في الزنزانة المجاورة . وانا لماذا صرخت .. ـ .. سبعة ؟؟ ياه .. هل تخاف يا باشجاويش ؟؟ الصيحة تفزعك ؟؟ يرتجف يتراجع ويلتصق بالحائط . لا اريد ضجة . قد ياتي الضابط النوبتجي . لن اصيح . فليس هناك خطر . ويجب ان ابتعد . وقع الخطوات عميق . والحذاء ثقيل . واعود الى مكاني . ولن امشي في الممر بين الزنزانات . القضبان ثقيلة . والجدران غليظة . وفوقها ابراج. وحولها سلك . اسلاك. وكشافات . ثم صحراء . ولا شيء. المبنى الضخم يضمنا كلنا . انا في الممر . هم بالداخل . انا متيقظ . هم نائمون . انا في ثياب صوفية سود . وهم في زي السجن الاسود الخيشي . على ظهر كل منهم نمرة وحول عنقي نمرتان من النحاس . نمرتي . وهم لا يرون نساءهم . وانا لا ارى امراتي اولادهم . ولا اولادي.

.. كلنا في القلعة .. حولنا الجدران الاربعة . والممر رحت وجئت فيه مئات المرات . والسلسلة في يدي . تصلصل . وترن . والعيون تذبل كل يوم . لكن شيئا خفيا يا باشجاويش .. كالنقرة . كالموت . يطل منهم . من كل جزء في اجسامهم حتى من الهواء الذي يحويهم . كثير منهم صرخوا .. يطلبون الموت . لكن صراخهم انذار . عذابهم .. تهديد يا باشجاويش ..

.. البرد والريح في الخارج . ولو وقفت فوق اعلى برج في القلعة. وصحت مناديا اولادي . هل تحمل الريح صوتي اليهم ؟؟ سيموت الصوت قبل ان يصل اليهم . وهل وصلت صرخاتهم الى اطفالهم . عندما جلدتهم .. تاك .. تراك .. تاك .. فوفوفو .. مجاري دم . خطوط حمر . طويلة . متقاطعة . اللحم يطلع في الكرباج وقد اسافر لارى امراتي . والتقي بطفل من اطفالهم . هو لا يعرفني . وانا لا اعرفه ولكنه لو عرف انني مزقت لحم ابيه ؟؟

.. الانين مرة اخرى . صوته مرتفع . يتالم . لا . لكن . فلاذهب .. صيحة من الزنزانة العليا ..

ـ من يتالم ؟؟

الصدى . وصمت . حتى الصوت هنا مسجون . ولن امره بالسكوت . والممر بارد والبعض استيقظ . ونظر من خلف القضبان . الظلال غامقة . يسنده زملاؤه ..

ـ اهو مريض جدا ؟؟

يلتفون . الدهشة في عيونهم آه .. آه .. يا ضحايا . يامساكين .. يا موتى ..

ـ الا يمكن استدعاء طبيب .. انه يحتضر ..

ـ طبيب ؟؟ الان ..

ـ نعم يا باشجاويش ..

ـ الآن .. الآن .

وهو نائم ولن اقدر على ايقاظه . الصباح؟؟ والالم ؟؟ واذا جاء الطبيب. اخرجوه . ويخرجوه . وكالجزار يفصحه . وزجاجة مركوركرم . ولفة قطن . الطبيب؟؟ والضابط ؟؟والبرج. والسماء السوداء . وبرد الصحراء نار . والسياج والسلك . والمفاتيح والصليل والثقب . وبالامس وضعوا زيتا في الاقفال . وتدور المفاتيح بسهولة . وينظرون . والبلدة . والجبل . واولادهم . والضابط يقول لي في ليلة صيف . خطيبتي لم ترسل

صراع

●

بين عقلي وبين قلبي صراع — حرت فيه محاولا تعليله
ينصت القلب للنداء فيهفو — وهو ظمآن ، كي يبل غليله
يسأل العقل كيف يمضي، فيأبى — رائد العقل ان يكون دليله
رب اني ما بين عقلي وقلبي — تائه ضل في الحياة سبيله
فحياتي قصيرة عند قلبي — واراها بعين عقلي طويله
وحياتي قبيحة عند عقلي — واراها بعين قلبي جميله
تاه في مهمه الحياة مسيري — بين عقلي وبين نفسي العليله

لندن — **سعيد العيسى**

من « العروة الوثقى »



لي خطايا . واطمئنه . ويهز راسه. والصمت الحقير . والليل السجين . حتى الليل والنهار والزمن كله في سجن. مع السلامة يا حضرة الضابط. اختفى الظل . وبالنهار . قال اليوم. الليلة عندك خدمة في العنبر الكبير .. انت فقط .. لا يا حضرة الضابط .. انا .. وهم .. وهم وانا .. يحرسوني . واحرسهم .. ها ..

ـ كله يصحى .. كله يصحى .. اصحوا .. اصحوا ..

ـ اي شيء جرى ؟؟

ـ اصحوا ..

ـ ما الذي حدث ؟؟

ـ مستعد ؟؟

ـ اصحوا .. اخرجوا .. اخرجوا .. اخرجوا .. الابواب مفتوحة ... فارقوا هذه القلعة البغيضة. .اذهبوا .. اذهبوا ..

اجري . ضجة . ما الذي حدث. الابواب تفتح . امتلأ الممر .. تعالى صياح . كلهم خرجوا تمايل المصباح. كلهم . فتح باب العنبر . دفعة هواء بارد من الخارج ..

ـ من هنا .. من هنا ..

ـ ماذا حدث ؟؟

ـ اي شيء جرى ؟؟

البرد . السياج . والابراج . القلعة منتصبة . تسخر ؟؟ مذعورة؟؟ تضحك ؟؟ اللعنة يا قلعة الجن .. الساحة خالية . الفناء بارد . اجري خالي . امراتي واولادي واولادهم.. صفارة عميقة كئيبة باردة .الكشافات توجه كلها الى الساحة . صفير . صفير .

اي شيء فعلته يا باشجاويش ؟؟

ساجري لن يوقفني احد . ساعبر السياج . والصحراء . وكل شيء..

ـ قف يا باشجاويش .. قف .. آمرك بالوقوف ..

من ؟؟

الضابط فوق البرج .

ـ لا .. لا .. لن اقف .. انزل واجري انت الآخر سجين .. سجين .. آه اجري بمفردي طاخ .. طاخ .. طاخ .. الزلط والرمل يتناثران تحت حذائي ..

ـ قف ... ف ..

ـ لا ... لا ..

الصدى . الصوت . الليل . الظلمة الشاملة ..

دبوس محمى . حية . ظهري . آخر . آخر . دبابيس . رائحة التراب . ياه .. الزلط كبير . كبير جدا . الزلط غير صلب . يتميع . والارض تنزل وتهبط وتهبط وتنزل وتروح وتجيء وتروح الى السوق ولا سماء وارض فقط ولا اتحرك ولا ابراج ولا جدران وحفرة باردة مظلمة مائعة حريرة ولا قلعة ولا جدران .. حتى هم .. ذهبوا ذهبوا .. كلهم .

القاهرة — **جمال الغيطاني**

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي

من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

كلمة (الانسلاخ) او (التجافي) التي كررت ذكرها في المقالات السابقة لها تاريخ من حيث اشتقاقها وتطورها في الاستعمال . فهي مشتقة في الاصل من معنى قديم لا يزال على ما هو عليه في الفرنسية والاسبانية بمعنى (الجنون) ، وذلك ان الانسان اذا انسلخ عن عقله او اذا انسلخ عقله عنه صار مجنونا . ولا يستعمل هذا المعنى في اللغة الانكليزية الا عند الاشارة الى طبيب الامراض العقلية المختص بمعالجة المجانين . غير ان الكلمة اكتسبت في الاستعمال الفلسفي معنى جديدا حصرها في النواحي الاقتصادية والاجتماعية بما في ذلك الناحية السياسية والناحية الدينية ايضا . واول من استعمل الكلمة في هذا المعنى الفلسفي الجديد الفيلسوفان (فختي) و (هيكل) في اوائل القرن التاسع عشر ، ثم اخذ (ماركس) هذا المعنى واستعمله في نظرياته الاقتصادية والاجتماعية .

والمعنى الجديد ليس له علاقة بالجنون من حيث هو هو ، وانما علاقته بحالة نفسانية اجتماعية يكون فيها الانسان بعيدا عن الشعور بنفسه بسبب انغماسه في بحر خضم من الحياة الميكانيكية المعقدة وتوزيع نشاطه في اتجاهات متباعدة تفصل بينه وبين نفسه ومجتمعه وثقافته الجماعية ، فهو من تخليه عن شخصيته تخلى عن روابطه مع الاسرة والبلدة والبلد ، واصبح كالمهاجر في بيئة غريبة من ناحية نفسانية ، يعيش ، كما قال (ريزمان) ، في هجرة عن داخليته . ومما زاد في الابتعاد والتجافي عن القيم الشعبية والمفهومات العامة في الثقافة والعادات كثرة الانخراط والامعان في الحياة الميكانيكية . فالانسان في الماضي كان يصنع الشيء بنفسه من مواد يستحصلها بنفسه ، ويبيع ما يصنعه في مقابل شيء آخر صنعه غيره بنفسه من مواد استحصلها بنفسه ، فكانت الصلة بينه وبين ما يصنعه هو وبينه وبين الصانع الآخر صلة وثيقة مباشرة عن طريق الاحتكاك الدائم والتعامل المستمر بدون واسطة او حائل ، الى ان اهتدى الانسان الى الآلة الحديثة فصار يصنع الاشياء بها بدون ان يباشر هو هذا الصنع في جميع اطواره ونواحيه ، وصار لا يتبادل الشيء بشيء آخر مع شخص آخر ، بل صار يعتمد على النقد يشتري به ما يريد بدون ان يعرف الصانع ، وصار هو يبيع ما يصنعه بالآلة عن طريق الاسواق والدكاكين بدون ان يعرف الى اين تذهب مصنوعاته وفي اي يد تقع . فهو قد تجافى وتباعد عن مصنوعاته ، واصبح النقد واسطة تحول بينه وبين الاتصال بصاحب المصنوعات الاخرى . والشيء المصنوع بالآلة ينطوي على قوة بشرية ، ولكن هذه القوة قد انسلخت عن الانسان . واصبح النقد عبارة عن القوة البشرية المنسلخة لاني ما لا اقدر على عمله بنفسي وبقوتي الخاصة استطيع ان اعمله بواسطة النقد . وبالنقد يمكن شراء كل شيء ، وبه يمكن استغلال القوى البشرية والتحكم بها . وهذا هو السبب في ان الثورة البلشفية في اول عهدها قررت ابطال التعامل بالنقد لانها ارادت ان تكون العلاقة بين الانسان والانسان علاقة مباشرة .

ومعنى ذلك ان الانسان يخلق في حياته اشياء او انظمة تنتقل اليها نواح من قوته وآماله وافكاره فتصبح تلك النواحي منسلخة عنه ، ويصبح هو فاقدا لها الى ان يصبح كالقشرة التي لا نواة فيها ولا ثمرة . ومن ذلك مثلا ان الزعيم في مجتمع ما هو بمثابة الاب في الاسرة على راي (فرويد) واتباعه ، غير ان فكرة الابوية انسلخت وحلت في الزعيم وصار الزعيم ينظر اليه من افراد المجتمع كما ينظر الى الاب من افراد الاسره . ثم ان فكرة (الدولة) فكرة منسلخة عن الانسان ، صار الانسان ينظر اليها نظرة التقديس والاحترام ، كما فعل الفلاسفة الالمان في القرن التاسع عشر بتأثير هيكل (١٧٧٠ — ١٨٣١) وجعلوا من الدولة شخصية مثالية مقدسة ، واعتبروها غاية في نفسها بدلا من ان تكون واسطة كما كان الاغريق يعتقدون .

ولكن الانسان في معظم نواحي حياته يكون في حالة انسلاخ عن محيطه سواء بالفكر او بالعمل . لنأخذ مثلا مسألة المسافات والابعاد على الارض وكيف تغلب الانسان عليها . فانه كلما كانت هذه المسافات والابعاد أطول وابعد من ان يتغلب عليها الانسان ، كان الانسان اقرب الى بيئته ومحيطه وجماعته ، ولكنه كلما تقلصت المسافات والابعاد وتلاشت بفعل وسائط النقل الحديثة وخصوصا السيارات والطائرات كان الانسان ابعد عن بيئته ومحيطه وجماعته واصبح متجافيا عنها ، وتباعد ما بينه وبين الارض التي يعيش عليها وانسلخ هو تدريجيا عن العالم . هذا الانسلاخ عن العالم هو العلاقة الفارقة للعصور الحديثة في العالم الغربي ، وهو في راي (ماكس فيبر) العامل الاصلي في وجود الراسمالية . ومع ان (ماركس) لم يغفل هذا الانسلاخ عن العالم ، غير ان جل اهتمامه كان منصرفا الى فكرة انسلاخ الانسان عن نفسه او انسلاخ الشيء المصنوع او غير المصنوع عن طبيعته في العصر الصناعي الحديث .

فهو يرى مثلا ان الحطب في الاصل هو للوقود وليس له الا مزية الاستعمال على هذه الصورة . ولكن حينما يصبح الحطب سلعة يباع ويشترى ينسلخ عن طبيعته وينتقل الى مجال التبادل التجاري ويكون كالنقد الذي يشترى به اي شيء . والغريب ان (ارسطو) اشار الى هذه النقطة بعينها في كتابه (السياسة) فقال ان الحذاء في الاصل

هو للاستعمال ، فاذا دخل في سلك التبادل التجاري انفصل عن حقيقته او طبيعته الاصلية . وسنعود الى هذا البحث في مناسبة اخرى ان شاء الله .

ولكن من اهم مظاهر الانسلاخ والتجافي مظهر المفكرين والفهماء في معالجتهم للمجتمع الذي يعيشون فيه او في موقفهم منه . ويدخل في عداد هؤلاء الانبياء والمصلحون الدينيون والاجتماعيون ، وكذلك الثوريون والفوضويون . ويدخل فيهم ايضا ، على سبيل المثال ، المزدكيون في فارس والمناوئون للتعميد في زمان لوثر واهل التسوية في بريطانيا في زمان كرومول ، بل واهل التسوية في اوائل العهد الاسلامي ، وكذلك الشعوبية في زمان الحكم العربي وغيرهم . فهؤلاء جميعا منسلخون عن مجتمعهم اما فكريا واما اجتماعيا ، ومنتبذون او منبوذون عنه . وهم جميعا ناقمون على احوال زمانهم يريدون تغييرها على نحو ما قال الشاعر العربي :

اذا لم يكن للمرء في دولة امرىء نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض لها غير انه يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

وقد اشرت في مقالات سابقة الى جماعة الطوبويين امثال افلاطون في كتابه (الجمهورية) الذين ارادوا اصلاح المجتمع وتغييره بمجتمع من نسج الخيال . هؤلاء لم يكونوا بوجه عام واقعيين عمليين ، وانما كتبوا ما كتبوه تنزيها للفكر وتسريحا للخيال ، ولذلك لم يكن لكتاباتهم أثر كبير في تغيير مجتمعهم . واكثر ما يقال عنهم هو انهم كانوا يبدون بهذه الكتابات عدم رضاهم عن المجتمع ونقمتهم عليه فحسب ، ولم يوجدوا نظاما عمليا قابلا للتطبيق ، واكتفوا بنظام مثالي خيالي لم تكن الظروف متهيئة لقبوله ، على عكس المفكرين والفهماء في فرنسا في القرن الثامن عشر والمفكرين والفهماء في روسيا وغيرها في القرن التاسع عشر . فالطوبويون أقرب شيء الى المفكرين والنظريين ، في حين ان دعاة الثورة في فرنسا وفي روسيا أقرب شيء الى الفهماء ، هم والانبياء والمصلحون .

وثمة انسلاخ آخر مهم ، يتجلى في الوقت الحاضر في المجال الفكري . فان تشعب العلم واتساع رقعته ادى الى الاختصاص في ناحية معينة ضيقة . والشخص المختص في مجاله الضيق هذا مرغم بحكم الضرورة ان ينغمس في بحثه ويغور فيه ، وبذلك ينقطع عن العلم بصورة عامة ، ويصبح كما لو انه عامل في معمل كبير ليس له من المعرفة بذلك المعمل الا ما يتراءى له من مجال عمله الضيق ، او هو كأحد العميان الخمسة او الستة الذين لمس كل واحد منهم جانبا واحدا من الفيل وخرجوا بآراء مختلفة عن حقيقة ذلك الملموس الواحد ، او هو على حد قول العبارة الانكليزية المأثورة عن الشخص الذي لا يرى الحرش بسبب اشجاره . وقد كتب في هذا الموضوع كتاب كثيرون وشددوا النكير على هذه الحالة ، وخص بعضهم نظام الدكتوراه في الجامعات الحديثة بنقمتهم هذه ، وقالوا ان هذا النظام يجعل الباحث أضعف اتصالا بواقعه وأمعن في التباعد والتجافي عن المحيط . ويزيد في هذا التجافي ان المختص عن طريق الدكتوراه او غيرها يرى في نفسه شخصا مختلفا عن بقية المتعلمين الاخرين ، ويضع نفسه فوق موضعهم . فكأن هؤلاء المختصين يؤلفون طبقة ارقى واعلى من طبقات المتعلمين ، ويجرهم ذلك الى الاستقلال بهذه الطبقة والترفع عن الطبقات الاخرى ، كأنهم فوق الجميع . ويلاحظ هذا الوضع بصورة أبرز من غيرها في البلاد العربية مثلا او البلاد الحديثة العهد بالعلم والثقافة . وزاد في تجافي هذه الطبقة عن المجتمع ان الثقافة التي اكتسبوها كانت من معين غير المعين الوطني . ثم ان الاهتمام الزائد بالشهادات الجامعية وبشهادات الاختصاص احدث نوعا من الانسلاخ ، فاصبح العلم يتمثل بالشهادة اكثر من أن يتمثل بالعلم نفسه ، وصارت الحالة شبيهة من حيث الانسلاخ بالحطب الذي انتقل من مجال غرضه الاصلي وهو الاستعمال الى مجال جديد في التبادل التجاري ، او هي كحالة الحذاء في رأي ارسطو . وقد لاحظ الكثيرون ان الاختصاص للدكتوراه في اللغة العربية كثيرا ما يزهد المختص باللغة العربية نفسها ، لان هذا المختص بانغماسه في البحث ، وخصوصا في جامعة اجنبية وعن طريق لغة اجنبية ، لا يقيم كبير وزن للغة العربية نفسها فيخرج من بحثه وقد نسيها . واذكر بهذه المناسبة صديقا لي كان يدرس الدكتوراه في الهندسة ، فقد كان يقول ان دراسته الدكتوراه انسته الهندسة .

ومن المعروفين الذين كتبوا حديثا عن ناحية الاختصاص هذه بين المفكرين الكاتب الانكليزي (لاسكي) والكاتب الاسباني (اورتيكا اي كاست) . فقد كتب الاول عن محدوديات الاختصاص وكتب الثاني عن بربرية الاختصاص. ومن جملة ما قاله لاسكي أن الاختصاصي يكتسب صفة العناد والمكابرة ولا يحفل بالآراء الجديدة ، واورد على ذلك امثلة عديدة منها مقاومة الاطباء لفكرة (جنر) في التطعيم ، ومقاومتهم لآراء (باستور) . وهذا بالاضافة الى موقف الازدراء الذي يقفه الاختصاصيون من غيرهم ، على اعتبار ان الذي ليس له اختصاص ، عن طريق الدكتوراه اوغيرها ، يجب ان لا يعتد برايه . فهم بذلك الموقف يعودون بنا الى العهد السابق حينما كان للعلم كهنته وعرافوه الذين كانت بيدهم مفاتيح المعرفة يحرصون عليها من تطاول المتطفلين. ويقول لاسلكي ، كما ذكرنا آنفا ، ان الاختصاصي يرى من الامور ناحية محدودة ويريد ان يحكم عليها من تلك الناحية الضيقة ، بدون توازن وتناسب في الحكم . وهذا على العكس من علماء القرون الوسطى بين العرب وغيرهم ،حينما كان العالم ملما بجميع نواحي العلم ، يرى الاشياء من نواحي مختلفة في الوقت نفسه . ويقال ان الشيخ ناصيف اليازجي مثلا لم يترك علما ألا تمرس به ، جريا على عادة القدماء . وهذا يذكرني بقول ارسطو الذي قال ان الضيف

يحكم على الوليمة حكما احسن من حكم الطباخ عليها . ويذكرني ايضا بالحكمة التي تنطوي عليها عادة الانكليز في عرض الامور على اللجان لدرسها ومناقشتها ، خوفا من ان يترك الامر للاختصاصيين وحدهم ، لان الانكليز من عادتهم ان ينظروا الى الاختصاصي نظرة الريبة وعدم الاطمئنان .

اما الكاتب الاسباني (اورتيكا اي كاست) الذي كتب عن بربرية الاختصاص ، فانه يتكلم عن اختصاص العالم النظامي أو العالم الطبيعي ، ويقول ان هذا العالم بدا من اول العهد بالعلم الموسوعي الشامل ، ثم اخذ يتخلى عن ناحية بعد ناحية الى ان انحصر الآن في مجال ضيق منزو عن المجرى العام . فالعالم في الوقت الحاضر يعرف ركنا ضيقا من الدنيا ، ويجهل سائر الاركان الاخرى منها ، فهو جاهل في وسط هذا الخضم الزاخر من العلم ، وابعد ما يكون عن فهم المجتمع الذي يعيش فيه فهما شاملا . وعلى ذلك فانه لا يصلح ان يقود حركة اصلاحية او ان ينخرط في سلك الفهماء ، ولا سيما لانه باع نفسه لغيره واصبح من جملة العمال الذين يتناولون اجورهم ويعيشون على هذه الاجور ، ويحرصون على بقاء الحال على ما هو عليه خوفا من ضياع هذه النعمة الاستغلالية التي يرتعون فيها . فهم منسلخون عن المجتمع لا يتفاعلون معه ، ولو ان نتاج اعمالهم يؤثر بالواسطة في هذا المجتمع .

ويذكر الكاتب الامريكي (هولتن) في بحث عن العلم النظامي الحديث والتقاليد الفكرية ان الهوة قد اتسعت في الوقت الحاضر بين العالم النظامي والمفكر او المثقف ، وبينه وبين الباحث في القضايا الانسانية عامة . ويرى ان هذا التفكك في الولاء بين العالم والمفكر والمثقف ، اذا تغاضينا عن الفهماء ، من ابرز معالم المدنية الحاضرة . ومن شانه ان يقضي على تماسك المجتمع ويزيد في الانسلاخ والتباعد عن هذا المجتمع ، وخصوصا بين العلماء وغيرهم . ثم ان الشخص العادي قد اصبح في حيرة من امره ، بعد ان فقد ما كان يعتقد به من آراء عامة ، دينية وغير دينية ، عن حقيقة هذا العالم ، فهو شقي الرحى : (١) لا يفهم الغاز هذا العلم الحديث ، و (٢) ليس بينه وبينها صلة ولا يرجى له ان يفهمها . والمفكرون اشد حيرة من الشخص العادي ، لانهم لم يعودوا قادرين على الاحاطة بخفايا العلم الحديث ودروبه ، وقد افلت الزمام من ايديهم الى الابد . ويدعو (هولتن) الى العمل على تضييق الهوة بين العالم النظامي من جهة وبين المثقف من جهة اخرى ، حتى يكون في الامكان عند الحاجة ايقاف هذا التدهور ، قبل فوات الوقت .

وقد خلق الانسياق في دروب العلم الطبيعي من جهة ثانية ردود فعل في مجالات عديدة ، واخذ البعض يدعو الى العودة الى الايمان والدين ، والبعض الآخر الى فكرة الوجودية . وفي الدعوة الاولى انصراف عن مخاطر العلم الحديث وتهديداته لحياة البشر بالقنبلة النووية ، وفي الدعوة الثانية احتجاج على تحويل الانسان الى شيء كغيره من الاشياء تتداوله الحياة الصناعية الحديثة بدون ان يكون له حول في تكييف شخصيته والتحكم بها . وقد عبر بعض الوجوديين عن ثورته على العقل بأن العقل اصبح ميكانيكيا آليا ، وقال (كيركيغور) وغيره من الوجوديين ان العقل الحديث مخطىء في نظرته الى الانسان بانه كائن مفكر فحسب . فالوجودية في القرنين التاسع عشر والعشرين احتجاج صارخ ضد العلم الحديث الذي يتصرف بالانسان كما لو انه شيء خال من الاحساس بنفسه . والفرق بين هذا الاحتجاج الوجودي واحتجاج (ماركس) ان ماركس احتج ضد سوء استعمال الانسان اقتصاديا واحتج كيركيغور على سوء استعمال الانسان نفسانيا . ولا ريب ان (ماركس) و (كيركيغور) من جماعة الفهماء .

لندن

حسن الكرمي

عنكبوت ضوء

تجيئين في ظلمات الحرير
وجدران قلبي ممدودة
تجيئين .. خطوك انعم مما
نعود ؟ جديدا بلا ذكريات ؟
كبرت . وقلبك اكبر صار .
وما لي الون حتى الهي

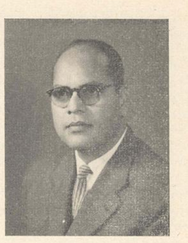
شتائية الجسم .. لو تذكرين

واكثر ... عبر فراغي المطير
الجناحين همت ، وكادت تطير
اظن ، وصوتك ذاك السرير
نعود لنعرى بلون الصخور ؟
وقلبك كان الصغير الصغير
جراحي العتيقة كيلا تثور ؟

لما جئت في ظلمات الحرير !!

حلب

علي الزيبق



ابو طالب زيــان

الامديون في التاريخ العربي

بقلم ابو طالب زيان

شغل الامديون فترة في التاريخ العربي ، تزيد على ثلاثــة قرون ، كانوا فيها العلماء الجادين في مختلف فروع العلم ، الحاذقين لشتى ضروب المعرفة : لغة وشعرا ونثرا وفقها.

فقد ولد الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي : ابو القاسم في عام ثلاثمائة وسبعين من الهجرة في آمد، وتوفى بالبصرة قبل ان يأتي سميه : الحسين بن سعد الى الدنيا باعوام ، وان كان قد ولد مثله بآمد ومات باصبهان .

غير ان الحسن بن بشر ، كان عالما بالادب راوية ، وان كان له شعر لا يسلكه في عداد فحول شعراء عصره ، او الذين تقدموه او اتوا بعده في علو الكعب ، او السبــق الاصيــل .

والواقع ان الحسن ، كان يمتاز بعلمه الذي شحن بــه اذهان اهل عصره في كتبه الكثيرة التي ينفرد بها اذا عقدنا موازنة بينه وبين الآمديين الذين ساروا سيرته ، ونسجوا على منواله في اللغة والادب .

كان : « المؤتلف والمختلف في اسماء الشعراء وكناهــم والقابهم وانسابهم » من الكتب التي بذل فيها الحسن بن بشر كثيرا من الجهد والوقت ، ليكون اثرا باقيا له على مدى الايام . فقد عنى فيه بجمع اسماء الشعراء وبذل اقصى الجهد في التفريق بين كناهم والقابهم ، وحدد الالقاب التي اشتهر بها كل واحد على سبيل البراعة ، ودقة الموازنــة والاستقصاء العليم .

على انه قد اردف كتابه هذا بكتاب آخر ، افرغ فيه كل جهده في فهم الشعر ، وطول باعه في نقد المنظوم ، واثبت فيه المعاني المشتركة والخاصة بين البحتري وابي تمام ، مما جعله يقف على قمة النقد ، ويعد على راس النقاد فـي الربط بين المعاني التي دارت بين الشعرين ، وتأرجحـت كثيرا بين الشاعرين اللذين اختارهما الحسن ، ونشرهمـا في تحد ظاهر ، واستجابة لداعي الثقافة ، واظهار المعرفة .

ومما تجدر الاشارة اليه ، ان الحسن الآمدي لم يكفه ان يفضل غيره بكتاب يحسب له في النقد ، حتى لا يعاب عليه قصوره في ميدان لم يرتده الا هو ، فامتد قلمه الـى قدامة بن جعفر في كتابه : « نقد الشعر » ليبين غلطه في الفهم ، ويرتاب في سلوكه للبحث ، ويفند بالمعالجة العلمية هذا الغلط ، ويظهر هذا الارتياب في كتــاب يسلكه في عداد الناقدين ، غير كتابيه في : « تفضيل شعر امــرىء القيس على الجاهليين » و :« فعلت وافعلت » وديوانـــه المتطوم في مئة ورقة ، وهو حبيس صدور قلة قليلة ممن يهمهم الاطلاع او يجرون وراء البحث المستطاب .

اما الحسين بن سعد بن الحسين الآمدي : ابو علي ، فهو لغوي متضلع وعالم بالنحو ، وشاعر قد لا يدخله المشتغلون بهذا الفن في عداد طائفة الشعراء المبرزين ، وان كانت له تلك المحاولات التي حاول بها الانتظام في هــذه الصفــوة المحلقة في دنيا الخيال ، او المعنية بالمزج والاختلاط ، ولد ونشأ بآمد ، وانتقل الى بغداد والشام ، واستوطن اصبهان الى ان مات بها .

حاول الحسين بن سعد ان يترسم سيرة الحسن بــن بشر في عنفوان بحثه ، وقوة استقصائه ، وغوصــه فــي العلوم ، وسبره كنه ارجاء المعرفة لا سيما وقد ولد مثله بآمد ، وشافه الذين اخذوا عن الحسن ، وادرك مركزه في ديار بكر ، وثناء الناس على معرفته فضلــه ، مما جعلــه يتمنى ان لو ادرك سلفه ، وعرف مجلسه واخذ عنه ،فيكون خير خلف لخير سلف ، غير ان الايــام التي عاجلت بانتهاء رسالة الحسن بن بشر ، ارادت ان يكون الحسين بن سعد، بدء عهد حاول امتداده ، وعمل على وصله ، الا انه قصر دون ما يريد ، وكبا ولكن دون ما تعثــر او استكانــة او خمود ، فاستعذب الجهاد ، وركن الى البحث ، الى ان برز الى الوجود ولكن كان كالشمعة بجانب المصبــاح ، الا ان هذين الآمديين وان اتفقا بحثا ودراسة ومفاضلة واستقصاء وعملا شعرا يعد لهمـا ، او يحسب عليهمـا ، فقــد جاء الآمديون الثلاثة الذين اتوا بعدهم واشتركوا جميعـا في رسالة واحدة ، وعمل بعينه ، مما جعلهم ينفردون على من تقدمهما بالبحث والمناظرة والاحكــام الفقهيــة ، والتراث الناضج ، والبحث المستوعب .

فعلي بن محمد بن عبد الرحمن : ابو الحسن البغدادي الآمدي ، كان فقيها حنبليا ، بغدادي الاصل والمولد ، نزل ثغر آمد بديار بكر في عام اربعمائة وخمسين من الهجــرة وتوفي به ، واليه كانت نسبته وشهرته وعمله في التأليف

العـودة

يا اخوتي الصفار ، ها انا قد عدت
يلفني الصمت
لكن عندي املا ، لم يطوه الموت
يا اخوتي الصفار

عيونكم يغمرها حنينكم الي
قد خفتم ان لا اعود
ها هنا ، بأي شيء
قد خفتم علي
يا اخوتي الصفار

لكني اتيت .. اتيت من بعيد
وكان لي اكثر من
الف اخ .. والف بيت
في الوطن الجديد
يا اخوتي الصفار
وفي الدروب .. في الظلام
في سفري البعيد للسلام
عبرت بالذئاب .. وبالكلاب !
لكنني امنت بالاياب
امنت بالاياب .. يا اخوتي الصفار

هـمبورغ — ناصر بوحيمد

وجلوسه للمحاضرة والدرس مما تمخض عنه : « عمـدة الحاضر وكفاية المسافر » في الاحكام الفقهية ، وهو فـي اربعة مجلدات ، تعمر بها المكتبات العامة ، وتشغل ركنـا هاما من اركان المكاتب الخاصة ، التي يحرص اصحابها على الاطلاع على مذهب احمد بن حنبل واحكامه ، والموازنة بينه وبين استاذه محمد بن ادريس الشافعي الذي كان عمدة له، ومرجعا في جميع الاحكام والتفاريع والمعاملات .

على انه كانت هناك فترة انقطاع بين الآمديين : على بـن محمد ابن عبد الرحمن البغدادي ، وعلى بن محمد بن سالم التغلبي تجاوزت المائة عام ، كان الناس يتشوقون خلالهـا لآمدي آخر ، يصل ما انقطع ، ويعمل على اتمام رسالة من سبقه بحثا وتاليفا وسفارة ، حتى كان عام خمسمائة وواحد وخمسين من الهجرة ، حينما ولد على ارض آمد بديار بكر: سيف الدين الآمدي ، غير انه تعلم في بغداد والشام وانتقل الى القاهرة ، فدرس فيها واشتهر ، وحسده بعض الفقهاء، فتعصبوا عليه ونسبوه الى فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة ، فخرج مستخفيا الى حماة ومنها الى دمشق ، حيث توفي بها .

والواقع ان سيف الدين ، كان له مـن طـول المعـاناة والاضطهاد والتنقل ، ما جعل نجمه يسطع بعشرين مصنفا في الاحكام ، ومختصر ، وجملة كتب ، منهـا : « ابكار الافكار في علم الكلام » و «لباب الالباب ، ودقائق الحقائق» فضلا عن تلاميذه في كل صقع نزل به ، الذين وعوا منه ، واخذوا عنه كثيرا من اصول الاحكـام ، ومشوا بها بـين الناس ينشرون رسالته ، ويلقنون احكامه ، ويستنطقون قضاياه ، ويشيدون بذكره ، ويترحمون على ايامه ، وذوده عن تعاليمه ، واضطهاده في سبيل كلمته ، الى ان كان عام سبعمائة واربعة عشر من الهجرة حينما ظهر على مسرح الحياة : علي بن احمد بن يوسف بن الخضر : زين الدين الآمدي ، وهو خامس الآمديين الذين شغلوا هذه القرون الثلاثة في التاريخ العربي ، واليهم يرجع الفضل في بنـاء العقل ، وتحرير كتب الاحكام من المفارقات والمغالطـات ، فكان مولده بآمد ومسكنه ووفاته ببغداد . وهو من اكابر الحنابلة : فقها وصدقا ومهابة ، اصيب بالعمى وهو فـي صغره ، الا انه كان آية في قوة الفراسة ، وحدة الذهـن وتعبير الرؤيا ، عارفا بلغات كثيرة ، اخصها : الفارسيـة والتركية والمغولية والرومية ، احترف تجارة الكتب وجمع كثيرا منها ، وكان كلما اشترى كتابا اخذ ورقـة وفتلهـا فصنعها حرفا او اكثر من حروف الهجاء لعد ثمن الكتاب بحساب الجمل ، ثم يلصقها على طرف جلد الكتاب ،ويجعل فوقها ورقة تثبتها ، فاذا غاب عنه ثمنه مس الحـروف الورقية فعرفه !!

على ان هذه الحرفة لم تمنعه من البحث والتصنيف ، ولم تعقه عن مواصلة الكفاح في مختلف مناحـي العلـم ، وشتى البحوث والاستنباطات . فهو اول من حاول عمـل الحروف البارزة ، وجعل منها حقيقة بعـد ان كانت امـلا يراود الذين فقدوا نعمة البصر ، ووضـــع بين ايديهـم المصباح المضيء ، والنور الذي يشع وسط الظلام ، فيكلأ هذه النفوس ، ويمسح عنها ما علق بها من شوائب ، وما ران عليها من صدأ . .

غير ان مما يؤسف له ، ان هذا الآمدي الكبير ، الذي كان خاتمة الآمديين بما صنع والف وبحث ، لم يبق له من آثاره الخالدة ، وتصانيفه المتعددة الا كتابه : «جواهر التبصير في علم التعبير » وهو مطبوع طبعة غير متقنة ، مما جعله يتأبى على الاقتناء ،ولا يحرص على البحث عنه الباحثون المغرمون.

والواقع ، ان خير ما يقدم الى العربية ، ويكون اعز لبنة في صرح الضاد ، ان يعاد طبع هذه الكتب ، فهي اجل من ان تهمل ، او تصاب بالضياع ، او يعفى عليها النسيان ، فهي تسجيل لفترة نضج من العلم والكفاح ، عـزيز علـى الزمن ان تتوارى ، او تطوى فلا يعلم عنها الباحثون في شتى اقطار الارض ، الا ما يسجله المؤرخون من احصاء او سرد لمجرد التصانيف او الاسماء ، او الحساب المستقيم .

القاهرة — ابو طالب زيان

خيل الي انها نبعت في الشارع .. وحين التقت نظراتنا احسست انها عادت الي من عالم بعيد .. مغشى بالضباب .. لا زالت ملامحها هي نفسها .. كما احببتها منذ ثلاثةعشر عاما ، والبسمة اللطيفة .. المشرقة في عينيها .. ما يزال القها حنونا .. كان رزم الايام المطوية .. لم تمسه .

كانت تدفع امامها عربة صغيرة .. فيها طفل وليد .. والى يمينها سار زوجها وهو يداعب شاربيه .. وعن يسارها كانت بنية صغيرة تتشبث بمقود العربة .. وتحث خطواتها لئلا تقصر ..

« اين كنت يا حبيبة ؟! ايمكن ان تغيبك دمشق عني طوال ثماني سنوات ؟! »

اعرف البيت الذي تسكنه ، ولقد حاولت كثيرا ان امر به علها تطل من الشباك المغلق ابدا .. ظننت انني لا بد القاها يوما ترتب اصص الزهرعلى الشرفة .. وحسبت انني ساراها وهي تعبر العتبة الى الزقاق .

« كثيرا ما اطلت دروبي .. لامر ببابك .. وكنت ارى الشبابيك ابدا مغلقة .. وبابك غارق في صمت موحش .. كانه لبيت هجره اهلوه .. لم استطع ان امسح نظراتي بك وامضي .. كان قلبي يخفق كنجم يطلق بريقه لاول مرة .. ماذا لوتقفين .. لنتصافح ؟! »

وددت لو جمد الناس في الشارع .. تمنيت لو اسدل ستارا كثيفا على العيون لاضمها الى صدري .. واضيع بين السحر ..

عندما يميل الدرب مع المنعطف لتغيب بعيدا وراء المنحنى .. فان اللهفة التي تشملني ستحرقني .. تماما كما رايتها اول مرة ..

« كنت تشدين كتبك بيدك الى صدرك .. وتضمين شعراتك البنية بمنديل اخضر .. اردت يومها ان ادنو منك .. لاهمس في اذنيك بجميع الكلمات التي غلت في صدري .. »

اشعر ان حجارة الشارع قامت من اماكنها .. ومضت تركض معها .. الناس يمضون من حولي .. انا ضائع على طرف الرصيف .. وهي وراء العربة تسرع .. كأنها ذاهبة الى موعد .. لا يمكن تأجيله .. لا زالت الصورة لدي .. في درج طاولتي .. ومنذ ايام بعيدة .. لم اعد اخرجها لاضعها امامي على الطاولة واغيب وراءها ساعات طوالا .. كنت اظن ان القصة قد انتهت عندما قالت لي ان الخاتم سينتقل بعد ايام الى اصبعها اليسرى ...

قلت يومها :

ـ هل اجيئك برسائلك وصورك ؟

فقالت :

ـ لا ... دعها معك ؟

قلت :

كأنها تقول مرحبا

بقلم نصر الدين البحرة

ـ الا تخافين ان اريها لزوجك ؟

قالت :

ـ انك لن تفعلها .

ولم افعلها ... غير اني صحوت ذات ليلة .. ولم يكن قد مضى علي في فراشي اكثر من ساعة .. اشعلت سيكارة وجلست امام النافذة ... ادخن وابكي بلا دموع ..

وقمت الى الطاولة .. فاخرجت رسائلها ... واسندت صورتها على مجموعة من الكتب ... « كان شعرك مرفوعا! الى الخلف .. من وراء اذنك ... وكان يزينها قرط مدور صغير . قررت وقتها ان اذهب الى زوجك .. واقرا عليه رسائلك ، لاطلب اليه ان يطلقك لي » .



وفي الصباح حين خرجت من الدار .. لم يبق في ذهني شيء .. وبقيت اياما كثيرة لا اذكر .. حتى وجهها ..

ذات مرة احببت ان استعيد ملامحها في راسي .. فتشت عن الصورة .. قلبت كتبي راسا على عقب .. ولم اجدها .. حاولت ان اتذكر شيئا من وجهها فلم استطع .

تراها كانت تخمن انها ستلقاني في مطرحي .. جامدا كصنم مهدم .. حين تلتفت ؟ ومع انني احسست بالاحجار ... وهي تركض تحت قدمي .. فان ضميري كان مستريحا تماما ... وانا اركض وراء سيدة متزوجة .

ماذا لو انها لم تكن تقصد مكانا ما ؟ ... لو ان الدرب يطول .. حتى لا ينتهي !!..

لن استطيع ان اقول لها كلمة واحدة ... ولن اقدر ان انظر في عينيها ... وبالرغم من انني اعلم جيدا انها ستقف فجاة لتقرع احد الابواب .. فيفتح لها وتدخل ... دون ان اقوى على ان اقول لها : «مع السلامة » ... فقد مضيت اركض وراء سيدة متزوجة ...

لو كان لي امراة ... وضعت يدي في يدها ... وانطلقنا نتمشور في احد الشوارع ... وبرز لي فجاة شاب .. راح يغرق زوجتي بنظراته .. ويركض وراءنا .. من رصيف الى رصيف ... فما عساني كنت افعل له ؟.

لقد اختطفوها مني ... من قال اني لن اتزوجها ، كنت ما ازال طالبا في المدرسة ... يوم سرقوها من عيني ... وانا لا انوي ان اخطف احدا ...

كتبت لي ذات يوم: انها لن تتزوج غيري ... واذا ارغمها اهلها ان تضم الى صدرها رجلا لا تعرفه . فانها

عيناه

مهداة الى البير اديب

●

عيناه نبعا حكمة … وبراءة وبصيرة
سلكا سبيلك في الدنى … درب النهى يا غادتي
«سيرين» انت على المدى … غنيت لحن غواية
كنا جميعا « عولسا » … نسري البحار لغاية
النجم يرشد فلكنا … نمضي لغير نهاية
والجسم مسرح روحنا … كل بلعب رواية
كتب المصير فصولها … نظارها في دهشة
انظر هنالك في الضحى … نورا اتى برسالة
من شاعر سأل الوجود … « لمن » وظل بحيرة (١)
ترك الصدى عبر الصدى … في نظرة وبفكرة

عينان ملؤهما السما … صفوا وعمق نقاوة
غيم افاء عليهما … وانجاب بعد مطيرة
لولا رفيف الحب في … حدقين عند حبيبة
كحلا جمال ملائك … وتطلعا في فرحة
قدحا الخلود ، لما ظفرت … ولا سمعت برحمة

(١) «لمن ؟» ديوان فكر للاستاذ البير اديب .

دمشق — زكي المحاسني

عيناك

مهداة الى البير اديب

عيناك مرآة بها … ابدا يشع جمال نفس
لم تفتحا حينا على … دنس ولا عيب ورجس
بل شعتا بهدى « الاديب » … ونوره اشعاع شمس
افديهما عينين من … رمد ، بعيني وحسي
ودواء عينك في الغدو … وفي الصباح وحين تمسي
نظرات عطف لابنتيك … بها غنى عن كل مس
وتناول الادب المصفى … في « الاديب » بكل كأس
سبحان من كتب الشفاء … لصاحبي ولي التأسي

القاهرة — بولس غانم

ستنتحر .. ستقطع شريانها بزجاجة ...

« لماذا تنظرين الى الوراء يا حبيبة .. ايمكن ... ايمكن ؟ لم نعد صغيرين ... »

لو ان احدا انتبه الى انني اسير وراءها .. فلا بد انني كنت ساغرق في بحار من الخجل ... قال لي الحلاق أمس :

– تمشى الشيب في راسك .

وما برحت امي تذكرني :

– كبرت .. متى نزوجك ..

« كنا نلتقي على سطح البناية التي تسكن فيها صديقتك ... فاتكىء على طرف السور وانت قربي . واغمس نظراتي في الافق البعيد .. كانت دمشق تبدو من تحتنا ، عند الاصيل .. شاحبة ... واطراف المآذن الملونة باشعة الشمس الغاربة ... كانت تظهر كاعالي سواري المراكب في آخر البحر ... وسفوح قاسيون الجرد .. كانت تتثاءب في ملل ... ورفيقتك تتشاغل عنا بنسج قطعة صوف بصنارتيها ... في حين تخالسنا النظر بطرف عينها .. »

ما كنا نتصور وقتها ... اننا سنلتقي ، كالغرباء .. ويمضي كلانا ... كأن ايادينا لم تتشابك ... وكأنني لم اضمها يوما الى صدري ..

ولم اعد اراها .. كأن الرصيف انشق وطواها .. فمضيت الوب عنها .. كطفل فقد امه في الزحام . منذ لحظة كانت امامي ... لم يكن ضروريا ان تنظر الي وتحترق عيناها في اعماقي ... كنت اتمنى لو اسمع صوتها .. لو انها تدوس على قدمي بشدة وتقول : عفوا .. ومع ان لسانها لم يتحرك .. فقد كان يرضيني ان اشعر انها تسير امامي ...

فوق هذه الاحجار كانت تدوس بقدميها .. وهنها مع منعطف الطريق التفتت فنظرت الي كأنها تقول : مرحبا ..

ايمكن ان اراها ثانية ؟!!..

دمشق — نصر الدين البحرة

نجيب نصار

بقلم البدوي الملثم

* * *

ولد المرحوم نجيب نصار في – عين عنوب – بلبنان ويمم طبريا ليعمل صيدلياً في المستشفى الاسكتلندي وغادرها الى حيفا لاحقا بأخويه الدكتور اسبر نصار طبيب الارسالية الانكليزية وابراهيم نصار صاحب (فندق نصار) بحيفا

وفي (جاره الكرمل) جاهد نجيب جهاد المؤمن بربه ، الفخور بعربه ، وكان أول من تنبه الى الخطر الصهيوني المحدق بفلسطين والعالم العربي ، فنبه العرب الى طاعون البشرية ، وتميز ببعد النظر والثبات على المبدا ، ولم تلن له قناة في مناجزة الاتراك وفضح اهداف الصهيونية العالمية ، فجرد قلما عنيفا كرسه لمقارعة الخصوم والتنديد باصحاب النوايا السيئة .

وليدعم نصار القول بالعمل ، وليسجل صرخاته المدوية على القرطاس اسس في حيفا عام ١٩٠٨ جريدة باسم « الكرمل » وحاول اولا التوفيق بين العرب والترك تفاديا للثغرات التي تهدف الصهيونية العالمية والدول الغربية السائرة في فلكها الى احداثها في هيكل – الرجل المريض – واجهازا على اغراءات الصهيونية للمسؤولين الاتراك بملايين الدنانير وعشرات الحسناوات واقناعهم بمحاسن قيام دولة اسرائيل – في فلسطين قلب العالم العربي اذ في قيامها مزايا للاتراك لا يحصرها عد او يحصيها حساب منها :

ا – شطر العالم العربي وتفتيت وحدته ،

ب – فصل فلسطين عن مصر وسورية ولبنان والعراق وسائر الاقطار العربية ،

ج – الحيلولة دون اتصال العرب بعضهم ببعض جوا وبرا وبحرا ،

وفي كل عدد من اعداد (الكرمل) كان نصار ينبه الى الخطر الصهيوني المحدق ببلاده ، فتعددت حملاته ،وتعالت صيحاته ، على صفحات جريدته لكنها لاقت السخرية والاستهزاء ، اذ لم يصدق العرب أن اليهود الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله سيقيمون في فلسطين ، المحفوفة بشقيقاتها العربية دولة تحمل اسم – اسرائيل – ومن فرط سذاجة عرب ذلك العهد لقب الكثيرون نصارا بـ « مجنون الصهيونية » وهم يجهلون ما يخفي هذا اللقب وراءه من هزؤ واستخفاف برجل كان عالي الهمة ، حصيف الراي ، ذكي الجنان !

وقبيل نشوب الحرب العالمية الاولى تأثر نصار بالاحداث السياسية العالمية خصوصا بعد ان لعبت السياسة الالمانية دورا هاما باجتذاب – الرجل المريض – الى جانبها ، فجاهر برايه ، ونصح ببقاء تركيا على الحياد وهو راي الكثرة من حكماء العرب في ذلك العهد وعلى راسهم المرحوم سليمان البستاني وزير التجارة والزراعة والمعادن في الدولة العثمانية ، الذي استقال من الوزارة دفاعا عن رايه ، وان تعذر – الحياد – فلتضع تركيا يدها بيد الانكليز لانهم اقوياء في اسطولهم البحري عكس المانيا التي كانت تملك طرادين في البحر المتوسط في ذلك العهد ، والانضمام الى الانكليز ليسهل ارتباط اجزاء الدولة العثمانية بعضها ببعض .

كانت آراء نصار التي نادى بها منافية لرغبات المسؤولين العسكريين من الاتراك من جهة والسفير الالماني في الاستانة والقنصل الالماني العام في حيفا من جهة أخرى ، وحاول القنصل الالماني العام اقناع نصار بالكف عن الحملة التي شنها على الحلف الالماني – العثماني لكنه ابى الدفاع عن سياسة تؤذي قومه في صميم مصالحهم فاندفع في تحذيرهم لما يحاك لهم في الخفاء من مؤامرات ودسائس ولما باءت جهود المسؤولين من الاتراك والالمان بالفشل اتهموا نصارا بالخيانة ولسان حاله ينشد مع الشاعر قوله :

محضتهم نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح الا ضحى الغد

ولكم تمنى نصار ارجاء الحرب العالمية الاولى ربع قرن ليتسنى للعرب التمرس في السياسة وتنظيم مجتمعهم واشاعة روح الجندية في نفوس ابنائهم ، واعتزازا بتاريخ امته صنف روايتي (نجدة العرب) و (وفاء العرب) وقد مثلت الاخيرة في الناصرة وحيفا عام ١٩١٩ وفي هاتين الروايتين صور عادات العرب وتقاليدهم ونخوتهم وهدفه تعريف بني قومه ، في سائر امصارهم ، بما كان للسلف الصالح من مبادىء سامية واخلاق رفيعة ،

الى الناصرة : وضيق الاتراك وحلفاؤهم الخناق على نصار فادرك خطورة الموقف وآمن بالوشايات التي تحاك له في السر والعلن ، فتوارى عن الانظار وقصد اصدقاءه في الناصرة ريثما تهدأ الزوابع ضده ليتسنى له الوقوف امام محكمة عرفية دفاعا عن نفسه ، وكان غنيا بالاصدقاء والانصار الذين ساعدوه على الفرار والاختباء في منازلهم وفي طليعتهم المرحوم كامل قعوار الذي فتح بيته في وجه الضيف الكبير والمرحوم توفيق الفاهوم والمرحوم الشيخ وجيه زيد الكيلاني،الذي كان يشغل في العهد العثماني منصب –شيخ الاسلام– في جزر الفلبين، والذي اكد لجمال باشا (الصفير) اخلاص (الشيخ مفلح الغساني (١)) للدولة العثمانية بعد ان كان الباشا يحمل الحقد والكراهية لنصار.

الى شرقي الاردن : وشعر نصار بأنه يعيش في دوامة من القلق والاضطراب فراح يتنقل بالخفاء في بعض المدن والقرى الفلسطينية الى ان أتيح له الوصول الى شرقي الاردن فنزل على صديق له اكرم وفادته وعرفه على عشيرته

(١) اسم مستعار اختاره المرحوم نجيب نصار لنفسه ، ولد ١٨٦٥ وتوفي ١٩٤٨ .

بقوله : « تخاصم ضيفنا مع اهله فجاءنا ليشتري فدانين يعتاش منهما ! » .

ولما شعر نصار باكتشاف امره اخذه صديقه الاردني وعرفه على احد رعاة الغنم وسأله ان يعتبر (الشيخ مفلح الفساني) وديعة لديه وذمة في عنقه ، وابى – مفلح – الا ان يقاسم الراعي عمله فقام برعاية الغنم على اكمل وجه ، وذات يوم فوجيء بنفر من اصدقائه قادمين من الناصرة ، واخبروه بأن اعز اصدقائه هناك سيق الى الديوان العرفي بسببه ، وهنالك جائزة مالية لمن يرشد اليه او يقبض عليه .

اخذ (الفساني) في تقليب الامر على اوجه شتى ، واخيرا قرر تسليم نفسه كرها منه بان يسمع ان اعز اصدقائه يلقى الهوان والعذاب بسببه ، فانضم الى ركب اخوانه وعادوا جميعهم الى الناصرة وهناك استسلم لقائمقام الناصرة المرحوم فوزي ملكي الذي دهش لعودة نصار ، وعلى الفور تشكلت هيئة للاستنطاق بادرت نصارا بالسؤال عن تغيبه تلك المدة الطويلة ، فاستعان بالحكمة القائلة « غب عن العين ينسك الفكر » وطلب نصار مقابلة جمال باشا (الصغير) فكان له ما اراد ، وعندما سأله عن تغيبه طيلة ثلاث سنوات اجابه (الشيخ مفلح الفساني) جوابا صريحا هو كرهه الصهيونية ومقاومتها بكل قواه ، ولهذا السبب كثر اعداؤه ووشاته فولد الظلم الذي اصابه ، واستشهد بقصة عمر بن الخطاب الذي جلد ابنه امام جمع من الناس حتى فارق الحياة لاختلائه بامرأة لم يتزوجها .

واضاف الشيخ مفلح الى هذا قوله : « في عهد عمر بن الخطاب ، الكبير بعدله ، القليل برجاله ، كان خصوم المسلمين ينهزمون امامهم وفتوحات العرب تتسع ، وفي عهدكم يجوس العدو الديار ، رغم كثرة عددكم واتساع رقعة ملكم ! »

وما ان اتم نصار عباراته هذه حتى انهمر الدمع من عيني (الباشا) لفرط تأثره بهذه الكلمات ووعد بانصافه ودفع كل اذى عنه .

وفي اليوم التالي سيق نصار مخفورا الى دمشق واودع سجن الديوان العرفي وهناك لاقى صنوفا من العذاب ، وكثيرا ما فكر بالانتحار بواسطة مسمار مثبت في غرفة سجنه ، غير ان توصية جمال باشا (الصغير) به احدثت اثرا حسنا في نفوس سجانيه ، فعاملوه معاملة حسنة ، وعند مثوله امام المجلس العرفي تليت عليه التهم العديدة فارتعد (الفساني) لدى سماعها ، ودافع عن رايه بصراحة وسئل عن رايه في الدعوة لموالاة الترك للانكليز في الحرب العالمية الاولى وما كتبه يوما في الكرمل : « يبقى الانسان حرا في اجتهاده ، حتى تدخل حكومة بلاده الحرب ، فحينئذ يترتب عليه ان ينطق بلسانها ، ويرى بعينيها ، ويسمع باذنيها » فاجاب رئيس المجلس العرفي بأن رايه هذا كان نتيجة اجتهاد كالكثيرين الذين يؤيدون محالفة الانكليز ، وذكر انه كان يؤثر سياسة الحياد اذا كان ذلك ممكنا !

ورفعت الجلسة وعاد نصار الى غرفته قرير العين وبعد مرور ايام جاءه (الشاويش) وطلب منه ان يختار الغرفة التي يريدها وهو حر في سجنه ، يحدث من يشاء ، فاختار غرفة كان يقضي فيها ساعات وحدته في مكافحة القمل بعد ان يخلع ثيابه ويلتف بعباءته .

تكررت جلسات محاكمته الى ان بلغت اثنتي عشرة وفي احداها زجره احد الجند وهو في طريقه الى المحكمة ، وضربه بعقب بندقيته ، فمشى موجوعا ، وبعد ان فرغ الرئيس من استنطاقه خاطبه (الفساني) بقوله : « الى متى يا سيدي الرئيس تحصرونني وتعودون بي تحت حراسة جند يسوقونني بالحراب والبنادق ؟ الص انا ؟ امجرم انا ؟ اخائن انا ؟ ان في كل كلمة خطتها يميني تتجلى آيات الاخلاص لقومي ووطني وحكومتي ، فاما ان تخرجوني بالكفالة وتحاكموني طليقا واما ان تحكموا علي وتريحوني من التشهير بي والهوان والعذاب ! »

اجابه الرئيس بقوله : « حتى جمال باشا يعجز عن اخلاء سبيلك بالكفالة نظرا للتهم الموجهة اليك ، وهنا اعتذر (الفساني) لانه دخل المحكمة متأثرا وطلب رفع الجلسة فكان له ما اراد !

وبعد اسبوع تلقى (الفساني) نبأ براءته مع مئة سجين عربي وعلى الاثر طلب مقابلة جمال باشا (الصغير) وشكره على موقفه المشرف من قضيته وتسلم منه توصية بعدم التعرض له وهو في طريقه الى الناصرة التي دخلها ليلقى في استقباله اهلا احبوه ، واخوانا اكرموه ، وشبانا اكبروا وطنيته .

بعد الاحتلال البريطاني : وبعد ان خفقت الرايةالبريطانية على ربوع فلسطين اسس نصار عام ١٩١٨ (الحزب العربي) في الناصرة ويمم نابلس ليؤسس فيها فرعا لحزبه فتصدى له الحاكم البريطاني وارغمه على العودة الىالناصرة مشيا على قدميه ، وبذلك انطلقت اولى الشرارات معلنة الحرب على بريطانيا واتخذ من (الكرمل) مسرحا لنفثات قلمه اللاذع فجاهر بعدائه للصهيونية العالمية ودعا عام ١٩٢٠ الى تأسيس مكاتب للدعاية في عواصم اوروبا فضحا لنوايا الصهيونية واقناعا للساسة المسؤولين بان صداقة العرب خير لهم وابقى .

وبعد ان استبان العرب سياسة الانكليز الرامية الى تهديد فلسطين وتقديمها لقمة سائغة للصهيونية شدد حملاته على بريطانيا وحارب سياسة « فرق تسد » التي جنحت لها (لندن) مقررة مصير الشعوب .

نصار وعرار : وفي عام ١٩٢٢ تعرف شاعر الاردن المرحوم مصطفى وهبي التل او قل (عرارا) ووجد فيه وعيا شاملا ونظرا ثاقبا وميولا تشبه ، الى حد بعيد، ميوله،

ولمس في جريدته (الكرمل) جراة في الذود عن الحق وسيفا مصلتا على الباطل وصراحة لا تشوبها غمغمة في تحذير العرب من الصهيونية البغيضة والطائفية المقيتة !

واخيرا عنّ لـ (عرار) و (نصار) أن يبشرا بالقومية العربية ، ويحذر من العلج الاجنبي ، فزارا الناصرة عام ١٩٢٢ لهذا الغرض ونصحا فئات فيها ان تترك سياسة الاتجار بالدين .

وفي عام ١٩٢٤ شد كلاهما الرحال الى مدينة الكرك وشرعا في الدعوة للوحدة العربية ومناجزة الاستعمار والتحليق بالوطن عن كل مهاترة واسفاف ، ومما قال نصار في هذا الصدد :

« ان الطائفية بذرة شريرة بذرها الاستعمار ليرتكز في سيادته عليها والتحكم بمقدراتنا عملا بسياسة «فرق تسد» فلنعبد الله اولا ، ولنصل للوطن ثانيا ، فليس الانبياء ولا القرآن والانجيل بحاجة الى شجار باسم الدين ، فالدين لله والوطن للجميع !

ان من اهداف الاستعمار اثارة النعرات الطائفية في بلادنا ، وللقضاء على هذه الروح الخبيثة ينبغي توحيد المذهبين الاسلامي والمسيحي في بلاد العرب ، وبما ان المسلمين العرب يؤلفون الاكثرية الساحقة لذا يجمل بالمسيحيين العرق اعتناق الاسلام وهو دستور عربي حمل رايته النبي العربي الكريم القائل : « الخلق كلهم عيال الله فاحبهم اليه انفعهم لعياله » .

وانشد (عرار) بلسان ــ ابي محمد ــ مارون عبود :

انجيل (عيسى) أو كتاب (محمد) سيان عندي في (العروبة) محتدي
ان كان (عيسى) للسلام يقودني فكذاك (احمد) للسعادة مرشدي
(خوري الكنيسة) لا يقول لنا افسقوا والفحش ينهي عنه (شيخ المسجد)
فعلام يبغون الضلال بقولهم هذا (مسيحي) وذاك (محمدي) ؟!

وفي عام ١٩٣٣ علا صوت (نصار) محذرا قومه من بيع الاراضي لليهود ، وعندما أفلس من صراخه كتب مخاطبا اياهم بالم وحرارة : «لقد فني قلمي ، وبح صوتي وانا اكتب اليكم بالامتناع عن بيع الاراضي ولكني الآن اقول لكم باني اعرف تماما ان الكل منكم يباع من الباب حتى المحراب ... لكن يا هوه ... اكراما لله ، اكراما لانبيائه ، حفظا على شرف نسائكم ، حفظاً على اطفالكم ، اذا كنتم تصرون على البيع ، فبيعوا على الاقل في الداخلية ولا تسلموا الشواطىء لاعدائكم لان دولة يهودية ستنشأ عليها ، وستصبح متكأ للاستعمار وخنجرا ساما في شاكلة العرب » .

وعلى الاثر تجددت الحملة عليه. واقفلت جريدته مرات وسيقت زوجته (ام فاروق) للسجن وفي عام ١٩٤٠ اقفلت السلطات البريطانية جريدته نهائيا فكتب آخر كلماته « وداعا يا عرب ، الى جو اقل اختناقا ! » ولجأ الشيخ مفلح الغساني الى بيسان عند انسبائه آل وهبه الى ان قضى نحبه مخلفا تاريخا حافلا بالجراة والجهاد والتضحية في سبيل عقيدته وقومه .

ومات (ابو شفيق) يأسا من الامة التي تحدر منها ، مكررا كلمة الفيلسوف المرحوم شبلي شميل : « انا من امة لو عرفت ان الشتيمة تنفعني لضنت بها علي ! »

عمان **البدوي الملثم**

غيرتي

*

أتحثني ألا اغار وانت لي امل انتصار
لكن لانك طيف احلامي واغنية النهار
لكن لانك ثروتي .. ادعوك في لهف الصفار
واظل من لهفي اغار.. فانت.. انت هوى مثار

يكوي وملمسه الحرير .. وانت تمسح بالعبير
قلبي .. وتفرش دربي الفيمان بالورد النضير
وبداك سلسلتا هواي رؤى تعوم بها العطور
وتحثني ألا اغار ، وانت تهمس كالخرير

أفلا يغار الزورق المحروم من شط النجاة ؟
أفلا تغار شواطىء سرقت اهازيج المياه ؟
أفلا يغار معذب .. مل الحياة بلا هواه ؟
وتحثني الا اغار وانت لي دفء الحياة

ان طال ليل الشوك والتبريح والدمع العصي
ان طال ليل الساهرين على صدى أمل خفي
وعدا الضباب على الهلال الفض في الافق القصي
فلسوف يمرح فجري الوسنان اذ تحنو علي

وتوسوس النسمات ازهارا تعيش بحجرتي
وسدتها بيديك مائدتي لتشعل لهفتي
ومضيت خلف هوى جديد.. رحت تقلب صفحتي!!
انسيت شعرك لي.. نسيت هواي.. حبي.. توبتي؟

ارفق بقنديلي الذي يرتج كالقلب الجريح
يبدي لعابا شاحبا .. عصفت به انفاس ريح
فترنحت ومضاته .. كالطير.. كالطير الذبيح
وانا أشيعه بصمتي .. بالدموع .. ولا ابوح

واذا شكوت.. رجوت.. أبكيت الجليد.. نهيتني
واذا لجأت اليك استجدي رضاك.. عصيتني
وبرغم ذاك ارش دربك بالشذا والسوسن
وبرغم ذاك تحثني الا اغار .. ظلمتني

القاهرة يوسف حسن نوفل



محمد رجب البيومي

ملكة فرعونية يقدسها الشعب

بقلم محمد رجب البيومي

منذ عشرين عاما قرات قصة (كفاح طيبة) التي اصدرها الاستاذ نجيب محفوظ اذ ذاك، يصور بها مرحلة من مراحل الجهاد المصري حين هب الوطنيون ثائرين على الهكسوس الدخلاء ، وقد ابدع الكاتب كعادته في تصوير المواقف واستيحاء الحياه حتى حبب لنا ان نعود بين الفينة والفينة الى قراءه التاريخ الفرعوني لنقتبس من روائعه الخالدة ما يبعث العظمة في نفوس الشرقيين بعامة والمصريين بخاصة ! وكان مما اثار اعجابي بين شخصيات القصة مواقف الملكة الكبيرة تيتي شيري ، فقد سجلت من خالد الاعمال في مضمار الكفاح ما يجب ان يدرسه المعنيون بتاريخ المراة على تناسل الاحقاب فليست باقل اطلاقا من حتشبوت صاحبة الذكر المدوي في تاريخ الفراعنة ! وكنت اظن ان ريشة القصاص الفنان قد بالغت كثيرا في تجسيم مواقف الملكة ، اذ ان من حقه فنيا ان يضيف الى اعمالها ما يبرز بعض المعاني التي يحرص على ترسيخها ، فله ان يسد بخياله بعض الثغرات التي تنفرج كثيرا في مواقف التاريخ لا سيما اذا تحدثت القصة عن عهد غامض لا تضيئه غير اعواد الثقاب ! ولكني حين رجعت الى المظان المختلفة في التاريخ الفرعوني رايت للملكة من المجادة والرفعة ما يضعها الموضع الذي اختاره المؤلف لها دون تزيد او اختلاق ، واقرب مرجع لدينا الآن هو الجزء الرابع من كتاب مصر القديمة الذي اخرجه المؤرخ الاثري الكبير الاستاذ سليم حسن فقد حفظ لها مكانها الصحيح في دراسة منهجية تعتمد على الآثار الملموسة ، وتستند الى الحقائق المشهودة فهي ابعد ما تكون عن خيال الفنان ، وتحليق القصاص ! والمدهش حقا ان هذه المراة الزعيمة كانت من سواد الشعب ، ولم تنحدر من نسل الملكات كغيرها من زوجات الفراعين وذلك يفسر عدم وجود اسمها في قائمة (ارباب الغرب) التي حفلت بذكر الملوك والملكات من النسل الملكي الخالص ! حيث كان مباحا للملك ! اذ ذاك ان يتزوج اخته وبعض محارمه دون اعتراض ، ولن يضيرها ذلك في شيء بل أضاف الى المعاني الانسانية دليلا على ان الرئاسة لا تنحصر في أفراد دون افراد واين كليوباتره منها مثلا ! وهي ذات النسب الصاعد في شجره الملوك والاقيال ! وقد كانت غانية تفتح صدرها لكل غاز فاتح لا ملكة تقدر مكان القياده في دولتها المتطلعة الى الاستقلال ، ولعل ما يبرز مكانة هذه الملكة العظيمة ما سجلته الآثار من حديث حفيدها البطل احمس عنها فقد تعاظمه ما قامت به من نضال وراى أن ينقل تابوتها من طيبة الى حيث تحتل معبدا مقدسا وهرما سامقا في العرابة المدفونة بالصعيد ، ولن يكون ذلك نعير مجاهدة ذات نضال ، وها هوذا يخاطب زوجته الملكة نفرتاري ــ فيما نقل الدكتور سليم حسن ص ٢١٤ ج٤ من موسوعة مصر القديمة ــ فيقول « اني كنت افكر في والدة والدتي بنفسي لان جلالتي يرغب في اقامة هرم لها ومحراب في جبانة العرابة المدفونة بمثابة أثر لها ، تقدس بحيرته ويؤسس قربانه وتغرس حوله الاشجار ويمد بالرجال الذين تحبس عليهم الاراضي ذوات الماشية والزروع ، وسيكون لها كهنة جنازيون ، وقراء مرتلون يعرف كل واجبه نحو المعبد وصاحبته » .

ثم بادر بانشاء ذلك كله ، ! واحمس بعد هو بطل الاستقلال وطارد الهكسوس فهو ادرى بما قامت به جدتهمن أعمال ! وسنحاول الآن ان نلخص دورها في هذا المجال .

لقد زحفت كتائب الهكسوس في اواخر القرن السابععشر قبل الميلاد على مصر كما تزحف السيول الجارفة ما تذر من شيء أتت عليه ، فامعنت في البلاد قتلا وتدميرا واستطاعت بالقوة الغاشمة والطغيان المدمر ان تغتصب الدلتا اغتصابا ، وان تتجه جنوبا الى منف وهرموبوليس . ثم وجدت من وسائل الرفاهية وطيب العيش في بلاد النضره والخصب والجمال ما حبب اليها الدعة والراحة فاوقفت الغزو وشرعت تنهل افاويق السعادة مما يتلاطم حولها من خير وثراء بعد ان كانت في صحراء مجدبة لا تجد ما يمسك الرمق بغير الجهد اللاغب ، والعناء المرير وكانت « اناريس » عاصمة المحتلين البغاة بها صولجان الحكم ومقر الادارة وبها معبد الاههم المعبود « سيت » .

اما الفراعنة من اصحاب الحكم الشرعي في البلاد فقد فروا الى طيبة وكانوا في تنازع وتقاتل رغم ما دهمهم من كوارث الاحتلال واهوال الرعاة ، وكان على عرشهم أمير ضعيف خائر يترنح كرسيه الواهن في مهب الرياح ، الا ان القدر ساق اليه زوجة ذكية حازمة هي الفتاة الرائعة «تيتي

شيري » فادركت ما يحيط بها من المزعجات ، وصرفت جهدها الجاهد — على صغر سنها — في تثبيت الدعائم ومحاربة الدسائس حتى قوي مركز زوجها «طاو» وتدخلت كل التدخل في تعيين الرؤساء واختيار الاكفاء ، مما اكسبها منزلة قوية ومكانة مرهوبة في النفوس ، وحين فاجأها الموت باختطاف زوجها العزيز لم تجزع ولم تهن بل اسندت الحكم الى نجلها الصغير « سيكنزع » وقاومت الدسائس بكل قوة وايمان ، وقد ادركت بذكائها اللماح ما للقوى الشعبية من تاثير فعال في توطيد الملك فاتجهت الى الشعب تشاركه بأساءه ، وتختلط بابنائه في المعابد والمواسم سامعة مستشيرة حتى اجتمعت حولها القلوب وسميت « الام المقدسة » فكان ذكرها الذائع عطرا جميلا ينفح الافواه والاسماع ، وقد وقفت وراء نجلها العزيز تذكي حقوده الثائرة على المغتصبين ، وتؤكد له ما يعانيه المصريون من بلاء ذريع في الدلتا تحت كابوس المحتل البغيض ، وتدعوه الى تعبئة الكتائب واخذ الاهبة لتصبح مصر جميعها في يد ابنائها الاكرمين ، وكانت تذهب الى معبد آمون فتقابل الكهنة وتدعوهم الى اذكاء العواطف بالبغض لهؤلاء الدخلاء حتى اصبحت طيبة مرجلا يغلي بالسخط والانتقام والسنة تجار بالثأر والحفيظة !

وكأن القدر كان يهيء لذلك البركان الثائر ان ينفجر في مدى قريب فقد جاءت رسل ملك الشمال « ابو فيس » عظيم الهكسوس تطالب ملك الجنوب « سيكنزع » بأشياء جارحة تعتبر اهانة قاسية للمصريين ، فهو يدعو اولا صاحب طيبة ان ينزع تاجه من فوق راسه اذ لا يليق بمصر ان يرتفع بها تاجان مختلفان ، احدهما في الشمال وثانيهما في الجنوب ، ثم يطالب ثانيا بانشاء معبد لاله الهكسوس « سيت » في طيبة متناسيا ان معبد الاله آمون ملاذ الارواح وموضع المهابة والتقديس ، ثم يشتد ثالثا فيطالب بذبح تماسيح البحر المقدسة لان اصواتها تشرد نومه اذا اغفى في الظلام ، وواضح اتم الوضوح ما بهذه المطالب الجائرة من استهانة واستهتار فهي تطعن الكرامة الوطنية في الصميم ثم تزيد فتنتهك القداسة الدينية انتهاكا ترخص بازائه الارواح ، وتسيل دونه الدماء ، وقد اجمع المصريون على رفضها رفضا حاسما جريئا كان موضع الدهشة لدى السفراء ، وخلا الملك الشاب بوالدته الحازمة فأذكت عزيمته واشارت عليه بحشد القوى الجبارة استعدادا للمعركة الرهيبة ، اذ لا يعقل ان يسكت ابو فيس امام هذا الرفض الصريح ، وكان ما توقعت « تيتي شيري » ان يكون ، فلم يمض غير قليل من الوقت السريع حتى زحفت سيول الهكسوس على طيبة ، وتوجهت الكتائب لملاقاتها في ميدان فسيح يعج بالعجلات الحربية ويمتلىء بالخيول والحراب ودارت معركة رهيبة بذل المصريون فيها دماءهم رخيصة هينة وابدوا من ضروب البسالة ما كان موضع الحيرة والاندهاش ، الا ان الكثرة الكاثرة في الجنود والآلات قد سيطرت على الموقف سيطرة اليمة فسقط «سيكنزع» الباسل صريعا وفرت فلول الكتائب المهزومة الى طيبة تحمل الى « تيتي شيري » النبأ الرهيب ، ولك ان تعجب لصاحبة هذه الاعصاب القوية ، فقد تلقت نعي ولدها الحبيب بثبات وصبر وسكبت دموعا لم تكد تتساقط حتى مسحتها في اباء وكبرياء ثم جمعت أصدقاءها الاقربين وقررت تعيين حفيدها الامير « كاموس » ملكا بعد والده واشارت بالرحيل الى الجنوب لتجد الامد هناك فسيحا للتأهب والاستعداد ودخلت الجيوش المنتصرة طيبة وارتفع علم الهكسوس في بلاد عزيزة لم تعرف الضيم والاستخذاء ! وذاق المصريون مرارة اليمة من تحكم الغاصب واستهتاره بكل مقدس مرموق بينما اخذت الحمية تتأجج وتتضرم في نفوس المهاجرين الى الجنوب فأقسمت تيتي شيري أن تمتنع عن كل متعة ورغبة حتى تعود طيبة الى اصحابها الامجاد واشارت على كاموس فاخذ يستخدم من رجال طيبة اعوانا يلوذون به فتسربت اليه وفود كثيرة من ذوي الحفيظة والاباء ، وفي سهول النوبة وبين ربوعها الموحشة نهضت عمليات التدريب على قدم وساق ونشط المصريون نشاطا رهيبا في اعداد العجلات الحربية وتهيئة الرماح والقسي وبناء الاسطول المصري ، وكان منظر الام المقدسة رائعا عجيبا اذ تطوف بين الجموع مشجعة ملهمة ، وقد استثارت عواطفهم الدينية استثارة قهارة عارمة فذكرت لهم ان معبد الاله آمون قد اقفل بطيبة الى الابد ، وان معبد « سيت » اله الهكسوس اصبح عامرا الاقا بوفود المحتلين من همج الرعاة ودهماء الاوشاب ممن يملكون العتاد والقوة ولا يملكون الشرف والانسانية والوفاء !! وقد بالغت الام المقدسة في حديثها فذكرت ان ارواح الشهداء تزعجها في منامها مطالبة بالثأر ، وان الاله آمون نفسه قد جاءها عدة مرات يدعوها الى الانتقام ، ويعدها بالنصر السريع !!

وكان لكل ذلك أثره العجيب فاندفعت النفوس في سباق جنوني الى التأهب للتضحية والاستبسال ، ولم تمض عشر سنوات حتى كانت كتائب الجنوب تزحف الى الشمال في عزم واصرار . . . وكان الهكسوس لا يتوقعون عودة للفراعنة الاصليين ، بعد ان تركوا الديار ولاذوا بالفرار ، فركن اكثر المحتلين الى الدعة ووجدوا في طيبة ملاذا للبهجة ومرادا للنعيم والصفاء ، فلم تعد سيوفهم تحشد استعدادا لموقعة حاسمة او موقف رهيب حتى اخذتهم جيوش كاموس اخذا وبيلا ، فانتبهت عيونهم على الخطر المحدق فجأة ، كما ينتبه النائم من مرقده ، فيجد النار تحيط به من كل مكان!! واخذت مدنهم تتساقط كاوراق الخريف مدينة وراء مدينة، ولا نعني بذلك انهم احجموا عن المقاومة والدفاع بل بذلوا جهدا جاهدا لم يصاحبه ما لدى المصريين من حفيظة وغضب ، فرجحت كفة الوطنيين وتسربت الفلول المنهزمة متراجعة نحو العاصمة في الشمال وفي اكبادها غيظ

يتضرم وبين آماقها دموع ساخنة تتساقط حزنا على المجد الذاوي والعرش المنهار !!

ترى هل سالمت الايام « تيتي شيري » بعد حرب ونضال!! ان القدر يعد لها كارثة مروعة خطيرة تعصف بالاشداء من بني الانسان فكيف بالسيدات المرهفات !! لقد حملت لها الانباء مصرع حفيدها « كاموس » في معركة رهيبة انتهت بظفر المصريين وانتصارهم الميمون !

ووقفت الام الحزينة تتلقى النبأ الصاعق للمرة الثالثة وتذكر كيف ذاقت مرارة العذاب حين مات زوجها « طاو » ثم كابدتها اليمة محرقة حين صرع ولـدها « سيكنزع » وها هي ذي تكاد ترنح متساقطة حـين يصدمها مصرع حفيدها الباسل « كاموس » !! يا للرياح العاصفة اخذت تلاطم حول دوحة عميقة الجذور مرتفعة الاغصان فتميل بها ذات اليمين وذات اليسار ، الا انها لم تستطع أن تنتزع قوتها الكامنة في اعماق التراب ، هكذا كانت الام المقدسة تتمايل وتفزع الا ان قدمها راسخة ثابتة لم تزل ، فاعتصمت بشجاعتها الخارقة ونادت بالامير أحمس حفيدها الثـاني ملكا شرعيا على البلاد وزوجته اخته « نفارتاي » وكان قائدا شجاعا نشأ في ضجيج الكتائب ورنـين الآلات فواصـل الزحف منتصرا ميمونا حتى وصل بكتائبه الظافرة الـى « أناريس » عاصمة الهكسوس ، واعتصمـت باسوارهـا الحصينة وابراجها الشاهقة فحاصرها ثلاث سنوات متتالية لا يجد اليأس الى قلبه سبيلا حتى نفد ما بها من طعـام وشراب واندفع المحـاصرون مستيئسين الى قتال احمق باطش فدارت عليهم كؤوس الموت وتلقتهم سيوف المصريين من كل مكان وفر نفر قليل الى فلسطين حـيث كانوا أول عهدهم فتعقبهم احمس في كل مكان وتطهر الوادي مـن الدخلاء ، وعاد النيل يجري رائق الصفحـة سائغ المشرب صافيا هنيئا لابنائه الاوفياء !! وقـد تم النصر النهائي في حلقات متعاقبة بدات « بسيكنزع » وختمت بأحمس وقد ظلت تنتقل حلقة حلقة في يد الام المقدسة فتباركهاوتؤيدها وتهديها الطريق المستقيم !!

سعدت تيتي بالنصر وقد ذاقت حلاوته الهنيئة ، فركنت الى الراحة الهادئة وعكفت على القراءة والعبادة في خريفها الشاحب ، وكانت تشعر بلذة منتشية حين ترسل عينيها في فضاء طيبة فتجدها متحررة ثم تجـول بخاطرها فـي آفاق الشمال الحبيب فتلمس برد الراحة حـين تعلم ان الهكسوس قد رحلوا الى غير عودة واخذت تنتظر المـوت لتبلغ ولدها الاول سيكنزع وحفيدها العزيز كاموس مـا احرزته من نجاح وتوفيق !! وقد هبـط عليها في امسية هادئة فاسلمت الروح راضيـــة مرضية واحتفلت البلاد بتوديعها الى مقرها الاخير احتفال المقدر العارف فاقيم لها قبر ومعبد في طيبة ثم دفع التقدير حفيدها احمس الى بناء معبد آخر لها في ابيدوس ولم تمض خمس سنوات على رحيلها الفاجع حتى هاجت شجـون احمس علـى فراقها وانتفضت عليه احزانه من جديد فحـاول تهدئة شجونه الثائرة فاقام حديقة غناء وغرس الاشجار الباسقة واجرى الماء في ربوة عالية ، ثم بنى هرما واقام معبدا ثالثا لفقيدته العزيزة !! لتظل مجال الذكرى وموضع الاسوة والاعتبار ، وقد عصفت الايام بالهرم والحديقة والمعابد الثلاثة وبقيت الذكرى العاطرة شذى ينفح الاجيال ونغما يمتع الزمان .

الفيوم **محمد رجب البيومي**



المسافر

*

كانت الطائرة تهتز وتزمجر
كان ينتظـر
كان يكتـب
دمعة انحدرت ، فمسحها بكم قميصه
عندما انطفات قناديل اشبيلية
رحل مع الليل والنجوم
قالت له أمه : وداعا !
لهب الطائرة الازرق
شرارات ابدية وابواب مغلقة
فراشة ليلية
تواجه النصف المظلم من القمر
قالت له امه : وداعا !
عندما كانت اشبيلية تحتضر
والقناديل تنطفيء
صيحة تنطلق وزجاج يتحطم
من يبكي تحت نافذة الليل الطويل ؟

الريح مسحت الجدران
فوداعا يا اشبيلية
كان الفارس العربي ينهض من فوق الانقاض
حاملا مفتاح بيته السليب معه
قالت له أمه : وداعا
وها هوذا يعود
الرياح الاربع والليل والنجوم
كان يكتـب
فاشبيلية لا تزال بعيدة

القاهرة **هند نوري**



محمد حاج حسين

الملك عبد العزيز والعقاد

بقلم الدكتور محمد حاج حسين

كان فرانسوا الاول ملك فرنسا اذا اجتمع بفنان اطال المكث معه ساعات يجاذبه الحديث ، ويستمع الى آرائه ، ويستنطقه اسرار فنه ، ويستمتع بروعة العبقرية المتجلية فيه ، بينما الوزراء في الخارج ينتظرونه ، يحترقون الارم على هذا الاهمال ، ويسخطون على الملك الذي فرغ لهذا الفنان حتى كاد ينساهم . وذات مرة عالنوه باحتجاجهم الصاخب على هذا الاهمال المزري ، فهم لا يفهمون كيف يؤثر عليهم الملك هذا الاديب الذي يفرغ له ردحا مديدا من الزمن . وتفجرت ضحكة الملك مرنانة ، وقال : انني استطيع ان اخلق بمرسوم مئة وزير .. اما العبقرية ، فهي من صنع الله .

هذه السطور المضيئة في تاريخ هذا الملك العظيم هي اروع ما في سيرته الشامخة ، فقد ظلت باسمة في ثغر الخلود تتناقلها الانسانية مزهوة بها ، كتراث ساجد يشدو لعظمة الفن والفكر ، وسمق بها فرانسوا الاول الى الذروة من العظمة المتلألئة ، فعظمة رعاة العواطف ، وحداة الفكر من الله ، وتمجيدهم تمجيد للعبقرية التي يجود بها الله على الانسانية بين الفينة والاخرى ليطرد سيرها نحو التقدم، وتبلغ غايتها من الرقي المنشود ، وعظمة كل امة لا تقاس الا بما تنجب من أفذاذ الفن والفكر ، فهم الذين يزينون مفرقها باكاليل الغار . يقول كارليل في كتابه الابطال : لو خيرنا بين شكسبير والهند ـ وكانت درة التاج البريطاني آنذاك ـ لما ترددنا في اختيار شكسبير .. وصدق الكاتب العظيم في قولته هذه ، فالهند طارت من الامبراطورية البريطانية، وبقي شكسبير مفخرة الانكليز الخالدة ، ودرة جامعة الشعوب التي تتكلم الانكليزية ، بل هو اروع تراث للانسانية في كل زمان ومكان تنهل من عبقريته النور والهدي ، وتزداد معرفة بالنفس والحياة .

ولا يخالج احد الشك في ان المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود كان عبقرية فذة شع نورها في دنيا العرب ، فملأتها بالعظمة الشادخة التي بهرت العالم ، فتوفر عليها باحثون كثيرون من مختلف الامم الغربية والشرقية يجلون اسرارها ، ويسبرون غورها ، ويستنطقون امجادها ، فالعبقرية ليست ملكا للامة التي تنجبها ، بل هي تراث وضيء للانسانية تقبس منها الحكمة في سيرها نحو غايتها المثلى .

والجزيرة العربية انتظرت الف عام حتى جاد الله عليها بهذه العبقرية المتقدة ، المتعددة الافانين والالوان ، فالملك عبد العزيز اسس ملكا عظيما بعزيمته الجبارة ، وشيده على اسس راسخة من الحب والتفاني ، ووحد الجزيرة العربية التي كانت تتوزعها امارات متناكرة متناحرة ، تضطرم بها فتن هوجاء عصفت بكل جليل وخير ، وذادت عنها الامن والاستقرار ، وشعت هذه العبقرية فوحدت الاجزاء المبتورة وساد الامن حتى اصبح مضرب المثل في العالم ، وعم الرخاء جميع الناس ، وامنوا الى يومهم وغدهم ، وعاد للاسلام غابر مجده ، بعد ان احيت سنته الشريفة واستعادت الجزيرة مجدها عندما كانت منارة تهدي العالم الى الحق والخير . والواقع ان عبقرية الملك عبد العزيز لا حدود لها نفذت في غوص وعمق الى جميع الوان الحياة : الحرب ، والادارة ، والسياسة ، والحكم الرشيد ، والفكر النير ، ومن طبيعة العبقرية ان تسبق زمنها ، فعندما اعتزمت الدول العربية خوض حرب فلسطين نصحهم باقتصار الحرب على اهل فلسطين أنفسهم ، ومدهم بالمال والعتاد والرجال .. ولم ينتفعوا بهذه الكلمة الواعية .. وها هم الآن يعودون الى هذا الراي الصائب بعد عشرين سنة من النكبة والمحنة، يعملون على خلق الكيان الفلسطيني لاسترداد حقنا السليب المهيض .

وامتازت هذه العبقرية بالرحمة الشاملة ، والحب الانساني الذي لا تخوم له ، فقد كان لا يسعده مثل الرخاء الذي يعم شعبه ، وكان يردد باستمرار : اذا لم يثر الشعب في عهدي ، فمتى يثري ؟ ولهذا كانت خزائنه للشعب يغدق عليه خيرها الوفير ، وباسم الشعب وهب الكثير من قصوره الملكية لتكون مدارس ومستشفيات . ولهذا عندما انتقل الى رحمته تعالى لم يبق احد في المملكة العربية السعودية الا ونزف قلبه دما على ملكه الراحل .

ومن الطبيعي ان تعرف هذه العبقرية حق العبقرية ، وتكرم الفن والفكر ، وتعرف قيمتهما الحقيقية التي هي

جوهر الحياة ، والاساس الذي ترتكز عليه ، وموقفه مع الاستاذ العقاد رحمه الله آية على هذه العظمة الروحية التي بهرت العالم بسناها .. وهذا الموقف الانساني النبيل اروع للفن والفكر ، وهو قمين ان يعرفه كل اديب عربي ليدرك ان الملك الراحل بلغ في تكريم الفكر تكريما بلغ القمة ، ولم يبق فيه زيادة لمستزيد .. فمما لا شك فيه ان اولئك الذين يخضلون مهجهم في سبيل الحق والخير والجمال في امتنا العربية يعانون الكثير من الجحود والنكران والازورار حتى اصبح الفكر يتعثر في خيبة مريرة .

لقد روى لي الاستاذ عبد الغفور العطار الاديب السعودي الكبير انه عندما دعا ملك مصر السابق فاروق جلالة الملك عبد العزيز لزيارة مصر اوفد الى مكة المكرمة بعثة شرف لترافق جلالته في رحلته الميمونة ، تضم بعض الوزراء ، ورجال الحاشية ، برئاسة الامير السابق عبد المنعم . وكان بين افراد هذه البعثة الاستاذ عباس محمود العقاد . وكان الملك عبد العزيز قد قرا كتابه عبقرية محمد ، فاعجب به ، ودعا له بالتوفيق .. ولما تشرفت البعثة بمقابلة الملك عبد العزيز ، وقدم له افرادها .. وجاء دور الاستاذ العقاد .. وبمجرد ان سمع جلالته أسمه فوجئت البعثة بجلالة الملك عبد العزيز يسارع الى الانحناء للعقاد قبل ان يترك له المجال للانحناء والتحية .. ودار راس العقاد .. اهو في حلم ام في حقيقة ؟. ما هذا التكريم الرائع الذي يلاقيه من أسد الجزيرة الذي طبق صيته الخافقين ؟ وبهم عليه الامر لاول وهلة .. ثم تيقظ على الحقيقة .. ان أسد الجزيرة يمنحه تكريما لم يعهده من قبل ، ويؤثره بالحب والاحترام اكثر من جميع افراد البعثة التي ازدحم فيها الوزراء والباشوات من أصحاب الدولة والمعالي . وسطعت الحقيقة الباهرة الاضواء مرة ثانية عندما تلطف جلالته ، فدعاه الى الجلوس عن يمينه ، بينما اجلس رئيس بعثة الشرف الامير عبد المنعم عن يساره . وراح جلالته يرحب به في حرارة ، ويطري مواهبه الادبية الممتازة ، وفكره النير ، والعقاد في ذهول ، والباشوات في عجب شديد ، وعهدهم ان المجد يقاس بالالقاب ، والوزارة .. وفاتهم ان العبقرية تنزع بطبيعتها الى العبقرية ، لان عظمتها مستمدة من الله ، وعظمتهم آنية مستمدة من المراسيم التي تبددها مراسيم اخرى ، فتعود الى ضآلتها الاولى .

وانطلقت السعادة تغمر الاستاذ العقاد لهذه الرعاية الكريمة ، وهو الذي لاقى العنت الكثير ، فاضطهد ، وسجن ، وآذوه حتى كادوا يحرمونه لقمة العيش .. وها هو أسد الجزيرة يغدق عليه كل هذا الاحترام والتكريم ، والرعاية والحب . وادرك ان جلالته يكرم في شخصه الفكر العربي الذي كان يعاني في تلك الفترة الاذى والجحود من اولئك الذين يقبضون على مقاليد الحكم في بلاد العرب .

ولم يقتصر اسد الجزيرة على هذا التكريم الحافل ،ففي اليوم التالي ارسل يدعوه لجلسة خاصة في قصره ، وخف اليه العقاد والفرحة تبرز من عينيه ، وتومض في اعماقه لهذه اللفتة الكريمة التي اضافها الى تكريمه السابق الذي كان اسعد لحظة عبرت في حياته . ونهض جلالته يستقبله ، والابتسامة الكريمة تنير وجهه الطلق . وطفق العقاد يزجي شكره العميق على هذا التكريم العظيم الذي كان اسعد لحظات حياته ، ويعتبره أرقى وسام يمكن ان يناله انسان .

وتحدث جلالته بصوته الرزين العميق النبرات الذي ينفذ الى اغوار القلوب مبديا اعجابه بالعقاد ، وحدثه عن عبقرية محمد ، هذا السفر الجليل الذي استمتع به ، ودعا له بالخير .. ثم قال : انني اغبطك على عملك .. واتمنى لو كنت مجرد طالب علم انقطع اليه .. انني افضل هذا على الملك .

واردف جلالته بعد قليل : اذا سقطت ورقة من شجرة اخاف ان يحاسبني الله عليها . ان مسؤوليتي عظيمة ، فجميع افراد الشعب في عهدتي ، وارجو من الله ان يساعدني برحمته حتى لا اقصر في حق احد منهم . انني اخاف الله الذي امتحنني بهذا الملك لاخدم خلقه .. ومن هذا ترى ان المسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقي تنوء بها الجبال .. ولهذا انت اوفر حظا مني .. ان الانقطاع الى العلم اجمل عمل مفيد للانسانية اذا اخلص حامله النية لله وعبيده . ومسار الاعجاب بالعقاد .. انه يرى بعينيه ، ويلمس بيديه الحكم الصالح الذي دعا اليه الاسلام ، والذي كان هدف الخلفاء الراشدين الذين نضروا الدنيا بمآتيهم الجميلة ، وعدلهم الذي اصبح اروع درس تلقته الاجيال لتشييد الحكم على اسس العدالة والحق والخير .

وجاء احد الخدم يحمل فاكهة ، واصاب جلالته منها اليسير ، وكان يقدم منها للعقاد بيده الكريمة ، حتى اذا ما انتهيا من تناولها حمل الخادم ابريق ماء ، وصب منه على يدي جلالة الملك . وبعد ان انتهى من غسل يديه ، اخذ جلالته الابريق ، وعطف على العقاد قائلا : تفضل .. اغسل يديك .

وبهت العقاد .. الى هذا الحد وصلت الرعاية الكريمة؟.

وتعثرت الكلمات في فمه ، وهو يقول : يا مولاي . ارجو ان تعفيني من هذه الرعاية الزائدة . ان هذا الخادم يستطيع ان يسكب لي الماء .

وابتسم جلالته ، وقال : لا .. يا استاذ . انني سعيد في سكب الماء على يديك .. انني اكرم فيك العلم .. اسمى ما في الوجود .

واعتذر العقاد ، ولكن جلالته اصر ، وعنا اخيرا للرغبة الخيرة .. والخجل يتعثر به ، ويغمغم بشكره الوافر لهذه الرعاية التي اتت فوق ما يتصوره انسان .

لقد ارتفع جلالته في هذا الى دنيا تموج بالالق والروحانية الباذخة ، وهو في هذا العمل النبيل احيا سنة السلف الصالح عندما كانت الامة العربية تبهر العالم في لألاء مجدها . وقال ابو العيناء — وهو عالم اعمى — تعشيت

انغام جريحة

ان نداء مجهولا يفرد في قلبي
كعصفور ازرق يحثني على الرحيل
الى بلاد تغرق في بحر من الخمرة والياسمين
وتسبح سكرى في ضوء شمس عجيبة
ترى يتاح لي السفر
ام ابقى هنا طيرا كسير الجناح
اجتر آلام غربتي وعذاباتي البربرية ...

حديقتي الصغيرة ، اتبكين لفراقي الابدي
لفراق شاعرك الغريب الذي غناك اروع اغانيه
وهو في قمة عذابه وذروة آلامه ...
سأسافر غدا ، كغجري مشرد
يا حديقتـي الصغيرة وسأذكرك كلمـا ضحك
وجه الربيع
وكلما خفق في قلبي جناح ...
الوداع ... الوداع !! ...

قطرات الندى الحالمة صباحا
فوق الورد واغصان الشجر
اين اختفت .. من اخذها عن امها
وتركها تتفطر لوعة واسى
قطرات الندى الحالمة ...
يقولون ان عاشقا خبيثا خطفها في عـربـة
الشمـس
متجها الى بلاد البحر والغيوم ...

الزهرة النامية على اغصان امها
تجهل اليد التي دفعتها الى النمو والازدهار
ولا تعلم ماذا تضمر لها الايام ...
وانا زهرة نامية في شجرة الحياة العجيبة
اجهل كيف جئت ولا اعلم عن مصيري شيئا؟!!.

البلبل الذي عرف الزهرة في الربيع
وانتشى بعطرها اللذيذ
فغنى الزهر والعطر وانشد الهوى والحنان ..
هذا البلبل ماذا تراه يغني
اذا احرق الصيف زهرته المفضلة وطواهـا
النسيان ؟!!..

سيذبل العمر يوما ونرحل قسرا عنهذه الحياة
فمن ينثر فوق قبورنا ازهارا للذكرى والوفاء
من يـذرف دموع الحسـرة ويطلـق تنهدات
المأسـاة ؟!!...

اطلقت هذا الصباح حمامة بيضاء من قلبي
كانت الشمس لم تستكمل زينتها بعد
وعند الضحى رجعت الحمامة بدم جديد
وكانت الشمس قد صبغت جناحيهـا بلـون
الذهـب ...

قال البحر لرمال الشاطيء :
من اين اتيت بلونك الذهبي البراق ...
ردت الرمال : من اعطاك لون سماء الربيع
ولون العيون ولون الينابيع الصافية ...

دمشق سليمان عواد

ذات ليلة عند المأمون ، وبعد ان فرغنا من العشاء ، صب احدهم الماء على يدي . وقال لي المأمون : اتدري من صب لك الماء يا ابا العيناء ؟

قلت : لا . يا امير المؤمنين ؟

قال : انـا .

قلت : هل فعلت هذا يا امير المؤمنين تكريما للعلم ؟

وجاء بعض انجال جلالته ، وكانوا صبية صغارا وقدمهم للعقاد ، وقال جلالته مزهوا بهم : انني اريـد ان يتعلموا ، ويتعمقوا العلم ليخدموا بلادهم . ثم سألهم : هل احد منكم يحفظ شعرا للاستاذ العقاد ؟

وتقدم الامير مساعد ، وانشد قصيدة « عودة الربيع » للعقاد غيبا وكان قد نظمها منذ ثلاثين سنة ، وطرب العقاد، وهو يصغي لهذه القصيدة يلقيها الامير الصغير في نبرات اخاذة ، والقاء رائع ، لا يتعثر في كلمة ، ولا مخرج حرف.

وخرج العقاد من القصر الملكي مشيعا بالحفاوة ، وفـي عينيه بريق .. ان السعادة تشرق في اعماقه .. وقريحته في ثوران شديد ، ونفسه في انفعال مزدحم ، وقلبه في وجيب .. ان جلالة الملك في تكريمه للفكر بشخصه قـد سما الى عالم يمور بالصحو والاشراق والخلود والعظمـة التي تتقاصر امامها جميع العظمات التي عهدتها البشرية .. وها هي ربة الشعر تحتدم في اعماقه ، والشعر يضطرب في جنانه ويتلجلج على لسانه .. فهذه العظمة الانسانيـة الريقة لا يعبر عنها سوى الشعر الرائع ..

مكة المكرمة محمد حاج حسين

الذئاب لا تزال تعوي والعراء قد تستر خلف الظلمة . الثورة المجنونة تبعثر نفسها هنا وهناك ... تمزقني .

وسادتي المتكورة تنام في صمت تحت راسي المشتعل ، ويداي المكوفتان تطبقان بيأس على هذه الكومة الساخنة ... احاول ان الملم اشلائي لاصنعها من جديد ... لارتقها وان لم تعد صالحة لارتديها . ولكن هي اشلائي وحدي ، فيجب ان ادفنها بنفسي .

الكل يركلها برجله ، وآخرون يدوسونها مسرعين ، وانا اتعثر بها . احاول ان الفها بمخاملي الناعمة الثمينة لاقذفها بعيدا ... ولكن تعود مقرورة ، واغلق عليها خزائني لتنخرها ... وتتكوم تحت اقدامي تنظر الي بدهشة .

لا .. لا لم يعد لي قدمان كالآخرين تقويان على حملي عندما اتعثر . والطبول تقرع الهوينا ... تحاول ان تهدهدني كي انسى العثرات . يعود عواؤها يعلو ويعلو فيأخذني الدوار واندفع في الصهريج .

الثورة المجنونة تزغرد باعلى صوتها تلوح لي ، والحلبة لم تعد فسيحة كما ظننتها وانا اسير نحو ذلك الدوي . الكل يستقبلون اعراسهم بفرحة وانا اسمع زغاريد ماتمي .

الانثى قد حطمت سلاسلها ... ستطير من ابراج الفضيلة ... من السجون المذهبة . كل شيء داخلها قد ابلاه الصمت .

اصوات الاقدام على السلم الخشبي ... تشدني قليلا ، وجرس الباب يدق . يدق بعنف ، فتحت الباب لاجده ... هو على الباب .

عيناه خاويتان لا تبحثان عن شيء ، ويداه النحيلتان لا تزالان مستقرتين في جيوب سترته الباهتة ... بلا رغبة .

خطاه لا زالت كالحبالى تسير متثاقلة ، وكلمتان تخرجان هما كل تحيته .

ويدخل لاغلق الباب وارتمي على السرير ، ليعود الاخطبوط يهصرني ، والثورة المجنونة تعربد في داخلي .. تقذفني بلا رحمة ، واتشبث بوسادتي الصغيرة . وهو لا يزال يجلس على الكرسي .

عيناه لم تعد خاويتين . لقد غرقتا في الصفحات الطويلة العريضة ... حيث السلم الموسيقي لسيمفونية شهرزاد ، والخيوط السود النافرة بدات تتناثر امام عيني واحاول ان اركز بصري . ولكن لا تزال تتناثر .

بودي لو اصرخ ... لو انهض لامزق الصفحات كي لا اراها مرة اخرى . لابكي على قدميك .. لاذيب اعوامي العشرين دموعا على سترتك الباهتة . لاستجديك من اجل عشرين ربيعا لم تورق ، انني اراها تذوي

الزوايا المهملة

بقلم غالب جرار

وهي متعطشة ... تستصرخ .. خواء عينيك تجوبهما علها تعثر على نظرات ذلك المسكين الجائع ، والذي يتلهى بكسرة خبز . يلفظها ليعود يلوكها من جديد .

اشجاري لم تعد يهمها ان يقطفها اجير بستاني . ولكن لا اريد ان اصلي في محرابك المزين بكل ما تشتهيه نفسي .

كلماتك لم تعد تغريني لاجلس امامك كطفلة ترمق صرحك العالي بخشوع ؛ وانت تحدثها عن الموسيقى ، لم اعد اشعر بعذوبة وجودك .

انت لا زلت تذكر الدور ، فالمسرح لم يهدم بعد ، والستارة لم تسدل .



انني لا ازال اراك عندما تقدمت نحوي ، وعيناك كما هي خاويتان . لتدعوني الى الاوبرا ، لم تكن تقصدني انا بدعوتك ، ولكن الورقتين القابعتين في سترتك تبحثان عن شريك ، ووجدته بعد ان انتهيت من عزفي على البيانو . لقد صفقت لي بحرارة كذلك صفق لي آخرون في قاعة الجامعة الفسيحة .

يا صغيري لا تنادني بالبلهاء . كنت اعرف انك دعوت شخصي الذي كان يعزف ، وليس انا الفتاة الجميلة الانيقة .

كنت اعلم ذلك ... ذهبت معك .. لا انكرك القول بانني قد وجدت متعة في ذلك .

— كنت تعلم الكثير عن الموسيقى . لقد حدثتني عن كل شيء ، عن دافنتشي ... وموزارت تقارن بين عظمة لوحة ، وروعة لحن . كنت تتحدث كانهم يقفون امامك ، لقد كنت قاسيا معهم . كم تمنيت لو انك لم ترفع صوتك في وجهيهما . لقد اعتدت ان انظر لهما بخشوع ، ولكن كنت اتذكر انني معك وانهما امامي ، ولم يعد بي حاجة لانظر حولي برهبة .

والتقينا مرات ومرات . كنت كل مرة تحدثني تارة عن رسام وتارة عن موسيقي ، اقد كنت لطيفا معي لقد اشعرتني بانه يمكن لفتاة العشرين ان تتحدث بصوت مسموع عن العباقرة .

وسرنا معا نفتح ابواب تاملاتك ، ولم تكن تنحني عندما تدعوني لاسبقك قليلا حتى لا اذكر انك مددت لي يدك لتصافحني ... كانت تاملاتك اكبر مني ، وانا تلك الفقيرة احلم بسعادة القصور ... وان كانت تاملات .

لقد عرفت كل قلاعك واحدة بعد الاخرى وقدماي يضغط عليهما حذائي القديم ... يودان لو يستريحا . عرفت ايضا الطريق الى غرفتك الصغيرة . حقا لم تكن كقلاعك الفسيحة المنظمة . الفوضى تنتشر فيها ولم يكن هذا الا ليزيد اعجابي بك . فذهبي كله بدا يخلع لونه

ليتحول الى جديد قاتم ... يمكن ان يصبح شيئاً .

لقد بدا فراشي الوثير يلدغني باشواكه . كنت احن الى حياة لا تزيفها القطع الانيقة المبعثرة هنا وهناك في ارجاء غرفتي ... لم اكن اجد هذا في غرفتك ومع هذا كنت استأذنك مرة كي ارتبها ... ارتب غرفتك المتواضعة ، وانت تجلس على الكرسي القديم تنظر بصمت الى صورة معلقة قد تراكم عليها الغبار . اعيد لها النظام بحذر كي لا اوقظك من صمتك .

شهور ستة والراهبة لا تزال في صومعتها تتعبد . لا تنظر الا في بهو ديرها المعتم .

اصداء العالم الخارجي لم تكن مسموعة لديها ... وحدتها صمتها. لقد كان يلذ لي ان اطوف معك كل تلك الصوامع ... وانا لا ازال بملابس راهبة .

اعوامي العشرين تدق عليك بعنف، وانت لا تزال مستلقيا ، تقوم لتستقبل الطارق . لقد اسكرك الربيع واعاد الى وجهك لونه . وعيناك المبهورتان تشعران بالدسم لاول مرة. واعطيتك كل شيء لم اكن بين يديك الا انثى تتلوى بفرحة ، لانها وجدت نفسها تعطي بسخاء . كنت آمل ان اعطيك الى الابد . وان اذيب ثلوجك . ان كل جوارحي نادتك بأنها تحبك . نعم لقد احببتك وانت لم تعد الا ان تستقبل زائريك، لتدخلهم في البرودة القاتلة ، ليستجدوك بعض الدفء . ولكن يا سيدي لم يعد بي حاجة لان تغلق على صومعتك . لم يكشف لي ثوبك الاسود الا عن ذلك الذئب الذي يسكن في غرفة ضيقة ، والذي يملك صدفة وجها بريئا . العصفور البائس قد ساقته قدماه لان يحط على شباكك . وزبدك المتعالي قد غمرني ، ولكن الدفء يعم الوجود ، وثلوجك لم يكن تحتها الا طين متسخ. بعدها تبعتني الى مسكني . حاولت ان تغير اثوابك باخرى جديدة .

وصمتك لم يعد يشعرني الا ان اتناسى وجودك لقد اصبحت تخشى المقارنة بين هذا وذاك ، لانني لن اسمعك... ولن تكون في نظري الا خادما قد تجرأ على ذم اسياده لا تصرخ في وجهي لتقول اني بلا قلب يحن الى سعادة ، ولا املك ضلوعا لا تتمزق بين ايدي رجل . انني املك كل شيء . الانثى لا تزال تجمع الريش لتدفىء بيتها . انني انظر اليك وانت تجلس ، تجمع دمى الصغيرة . تحاول ان تعيد ترتيبها لتوهمني بانها ذات روح .

وانت الآن تجلس امامي على الكرسي ... وعيناك الغارقتان في الصفحات الطويلة العريضة ، تحاولان ان تخرج لعبا . ولكن لم يعد بك حاجة لذلك. ثورتي المجنونة تناديك لتدفعني اليك . لارتمي مرة اخرى في وحلك. وتفغر فاك وانا اصرخ في وجهك . اذهب الى الجحيم . عد الى كهوفك . لن يتبعك احد . لقد هزل الحوت . لن يعطيك شحما تحرقه بعد اليوم .

الدمام

غالب جرار

رحلة في العيون الخضر

●

يا زورقي ابحر ، ولا تحذر … نحن هنا في شاطىء اخضر
نحن هنا ، والريح مخنوقة … والجو ، بالاحلام خصب ، ثري
نحن هنا ، والصحو يغري بنا … فلننشر الشراع ، فلننشر
وبعدها لو لم نجد شاطئا … نرسو به فانس ولا تذعر
فانما العمر متاه ، وهل … احلى من المتاه في الابحر ؟

وابحر الزورق وارتاح في … خاطره ، طيب المدى الاخضر
وراح يجري والهوى زاده … يعب من خمر الهوى المسكر
يرنو فما في الافق الا رؤى … رفافة ... ان يلتفت تخطر
تشرب عيناه سنى زهوها … تنعم في عطائها الاوفر
وينتشي ، والكون من حوله … يذكي به نار الهوى المسعر

وعاد من رحلته زورقي … من عالم حلو السنى خير
عاد وفيه للضياع الذي … عاناه في المتاه، ..شوق بري
يحلم بالعودة ، بالملتقى ، … مع الصباح المسفر ، المسفر
مع الربيع الحلو .. والصحو ، … والاحلام والدفء اللذيذ الطري
مع المدى الاخضر يحكي له .. … عن سر خلق الشاعر العبقري

هي العيون الخضر .. ما اروع العيون ان تصح وان تسكر
ما اروع التيه على زورق … من بيدر — فيها — الى بيدر
ان هزني الشوق لها والهوى … وانهمر الحنين في محجري
احيا على اطيافها ، انتشي … بروعة الطيوف اذ تنبري
هي العيون الخضر اين المدى … من العيون الخضر .. ان تسكر

شقراء — لبنان

محمد حسن الامين

في الادب البلجيكي

بقلم سعد صائب

شد ما تساءلت وانا اقرأ الادب البلجيكي (١) ، قديمه وحديثه ، عن سبب اعراضنا المتمادي عنه ؟. وفيم لا يتصفحه ادباؤنا ويخبرون دخيلته ، ويبحثون عن خافي جماله ، كشأنهم مع غيره من آداب الامم شرقية او غربية ، وهم الذين ما انفكوا يكنفونها بظلهم ، ويفيضون بالترجمة عنها ، حتى اختلط علينا غثها بثمينها ؟؟..

اترى يبلغ ادبنا المعاصر اربه ان اقتصر على الاخذ من منبع واحد او منبعين ؟.

وهل في مقدوره النهوض والتسامي ان اعتراه فتور او كلال ، وعجز عن البحث عما يغذيه ويجدده، ليغدو جديرا بالاعجاب ، قمينا بالاقتداء ، اهلا للنقل عنه والفخر به؟

ينبغي علينا اذن ان تكون نوافذنا مفتوحة لآداب الامم جميعها ، شريطة أن نختار الاصلح منها والانفع ، بذلك يستعلي ادبنا فيحلو ويعمق ويعذب، وبذلك تكتمل اداته وتغزر مادته ، وتتعدد فنونه ونبلغ حاجتنا منه ...

ولعل اخشى ما اخشاه على ادبنا ، توهمنا اننا اذ نقبل على ادب امة بعينها ، انما نستنفد قوتنا في طلب مرضاتها ، او تحقيق اغراضها ، وان كان بعض ادبها مما يشين اخلاقنا ، ويشوه معالم وجودنا ، ولا يغني ادبنا .. واننا لنرى الى فئة ضالة من المترجمين تقبل على نقل هذا الادب او ذاك ، والى فئة تافهة من الكتاب ، تقلد هذا الادب او ذاك كيما تواري عجزها، تتذرع كلتاهما، بحجة غناه وفائدته ، وهي لعمري حجة واهية يدحضها واقعنا . وعندي ان ثمة غاية مقصودة مبيتة تهدفان اليها، وان ثمة مطمعا ترميان اليه ، وليس ذاك الهدف ، او هذا المطمع الا تحقيق اغراض تلك الامة في بعثرة امكاناتنا ، وخلق الفوضى في تفكيرنا ، والعبث بقيمنا ، وتشويه اهدافنا ...

وليس ثمة شك في ان من يستحسن هذا الضرب من التقليد او النقل « ضعيف النحيزة ، سليب المروءة ، وان من ينظر هذا وشبهه ، صفيق الوجه قليل المعرفة » .. لقد حركني الى هذا التمهيد ، ما يطالعنا به الادباء المقلدون التافهون ، او المترجمون المضللون الضالعون معهم ، مما ليس في طاقتنا قبوله ، ولا من شيمنا الرضى عنه ، لشديد احساسنا بخطره ، وعميق شعورنا بنواياه الخبيثة ، وشكنا بعدم جدواه ، وبالتالي لقصورهم عن ايفاء الفرض من الابداع والخلق ، لا سيما وقد يستحيل تماديهم خطرا لا على ادبنا وفكرنا وحدهما فحسب ، بل خطرا على نهضتنا كذلك ...

ان هؤلاء المخانيث (في اللغة : الذين يتعللون بكل شيء زائف ، خنث الرجل : كان فيه لين وتكسر وتثن) فكان على صورة الرجال واحوال النساء .) ما ان يروا كتابا مسموما مثبطا للعزيمة ، او قصة كاذبة فاجرة ، موهنة للقوى ، حتى ينفضوا اليها ، وقد تعاموا عن الغاية منها ، ينقلونها فرحين الى لغتنا ، وكأنهم عثروا على كنز ثمين ، او لقو لقية نادرة ، زاعمين انهم ينيرون بها امتهم بما لا ينبغي ان تعلمه ، فيعقدون لها مشاكلها بدل ان يحلوها ، ويحجبون عنها موقفها بدل ان يجلوه ...

يقول علماء الاجتماع « ان الخطيئة هي الامتناع عن طاعة نظام الاشياء ، ويدخلون تحت اسمها كل فعل ، وكل فكرة تميل الى الحط من شأن الحياة، او تحطيمها ، او تخريبها من ناحيتها الانسانية البحتة » .

اترى في مقدورنا درء تيار هؤلاء الخطاة الجارف ، الذي ينحدر الينا حاملا كل اوضار الامم التي ينقلون عنها ، ام تراه سيغمرنا تيارهم غير مبال بنا ، ولا آبه لنا لعجزنا عن الصمود امامه ، وكبح جماحه ، فنمسي نحن خطاة مثلهم ؟..

الا فلنحررهم من خطاياهم قبل ان يتمادوا فيها ، ولنقف في وجههم وقفة المؤمن اليقظ ، ان كنا نريد حقا الخير لنهضتنا ، والكرامة لامتنا .

ان الهدف من احتكاك الامم ببعضها، ليس التقليد او نقل الغث الذي يفسد ويقذي ، بل تحقيق الفائدة المرجوة من الاحتكاك ذاته والتي لا يوازيها شيء قط ...

الادب البلجيكي بين الامس واليوم

مثلما يتحدثون في بلجيكابلغتين(٢)، كذلك ينشؤون ادبين : ادبا فرنسيا – ان جاز التعبير – وادبا فلمنديا . وليس بخافان النتاج الادبيالبلجيكي في اللغة الفرنسية عريق في القدم ، اذ ان الشعر القصير ذاته ، الذي عرف باسم «انشودة القديسة اولالي» كان – في الواقع – اقدم بناء شعري في اللغة الفرنسية ، راى النور في المقاطعات الوالونية التابعة لبلجيكا .

سعد صائب



ومعلوم ان اللغة الفرنسية ما برحت منذ القرن الثاني عشر ، لغة الطبقة المثقفة في مقاطعة « الفلاندر » ، اذ كانت قصور الامراء واشباههم — في العصر الوسيط — المراكز الحقيقية للادب الفرنسي ، فكم من ادباء ساعدوا على صياغة النثر الفرنسي ، كجماعة « هونوبيه فرواسار » و « الجماعة الفلمندية » . وكم من مؤرخين اسهموا في كتابة التاريخ امثال : « كولان دوهينو » و « جيهان دوترموز » و « شاستولان » . وكان لهم جميعا فضل لا يجحد بواهم مكانا مرموقا في الادب الفرنسي . كما حظي « جان لومير دوبيلج » في ختام القرن الخامس عشر بشهرة ادبية واسعة لا في بلجيكا وحدها فحسب ، بل وفي اوروبا كذلك ، اذ كان بحق رائد الشاعر الفرنسي كليمان مارو الذي اتسم شعره بضرب من المسامرات السائغة . وفي القرن السادس عشر دارت احاديث ومساجلات — بخاصة في اللاتينية — وفي اللغة الفلمندية اكثر منها في الوالونية بعثت النشاط الادبي في بلجيكا ، فكان « ماريكس دو سانت الدوغوند » ينظم اغلب اهاجيه السياسية والدينية ، حينا بالفلمندية واحيانا بالفرنسية .

بيد اننا نلحظ ان ثمة ركودا حقيقيا عم بلدان الاراضي المنخفضة الكاثوليكية — خلال القرن السابع عشر — من جراء حربها الاهلية ، وحروبها مع الدول الاخرى ، لم تستطع الافلات منه الا قبيل نهاية القرن الثامن عشر ، اذ لم يبرز خلال هذه الحقبة الطويلة — اي اديب او شاعر مرموق ، اذا استثنينا « اميرلينيو » الذي كان يردد قائلا : « انا نمساوي في فرنسا ، فرنسي في النمسا ، واحدهما او الآخر في روسيا » . بالرغم من انه كان اوروبيا اكثر منه بلجيكيا . .

واذ رغبت الامبراطورة « ماري تيريز » — في ذاك الحين — بدعم الفنون والآداب في الاراضي المنخفضة النمساوية فقد اسست في بروكسل عام ١٧٧٣ مجمعا للعلوم والاداب ، اقتصر على قبول الاساتذة والعلماء واستثني غيرهم ، وظل كذلك حتى عام ١٩٢١ حين انشيء «المجمع الملكي» فانضم اليه شعراء وادباء . وحين تم الاستقلال السياسي عام ١٨٣٠ لم يعن في بداية الامر بالنهوض بالادب ، بل لم يعبأ به ، اذ لم يكن من الممكن ترقب بزوغ نهضة في تلك الحقبة ، لذلك لم نر للحركة الادبية اي نشاط ملموس الا حوالي عام ١٨٨٠ على اثر ظهور مجلة « بلجيكا الفتاة » التي اصدرها الشاعر « ماكس واللر » وبوسعنا تحديد ظهور شعراء كثر خلال الحقبة التي تلته امثال : « فان هاسيلت » و « دوستاسار » و « الكروسيين » و « بوتفان » وان لم يؤبه بهم ، لخلوهم من الاصالة ، وضعف موهبتهم الشعرية . .

اما كتاب القصة من امثال : « فان بيميل » و « غريسون » و « دوردول » وبخاصة «شارل دوكوستير» و «كاميل لومونيه » و « اوكتاف بيرمز » فقد كان لهم اعظم الاثر في دعم نشاط مجلة « بلجيكا الفتاة » بما انتجوه من روائع القصص ، مما ادى الى ظهور مدرسة ادبية عرفت باسمها ، حمل لواءها مع هؤلاء القصصيين ، شعراء خضعوا بعنف لتأثير «بودلير» والشعراء « البرناسيين » الفرنسيين ، وكان في طليعتهم الشعراء : « ايفان جيلكان » و « البير جيرو » و « فاليرجيل » و « فرناند سيفيران » ولا بد لنا من ان نضيف الى هذه المدرسة ذاتها — خلال تلك الحقبة — بعض ادباء كان لهم وزنهم وفي مقدمتهم « هنري موبيل » . . .

اما الحركة الرمزية في بلجيكا فكان تأثيرها واضحا اشد الوضوح ، لا سيما وان العديد من شعرائها لعبوا في هذه الحركة دورا هاما جدا امثال : « اميل فيرهارن » و «شارل فان ليربرغ » و « البرت موكل » و « غريغوار ليروي » و « ماكس السكامب » و « موريس ماترلنك » ولعل مجد « ماترلنك » كمجد الشاعر « فيرهارن » لم يتمهلا في تخطي الحدود البلجيكية ، بل عبراها مسرعين في سهولة ويسر . .

ولقد امتاز «ماترلنك» عن خدينه « فيرهارن » بآثاره المسرحية وبحوثه الفلسفية اكثر منه كشاعر رمزي ، وغدا في نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، احد كبار الوجوه الادبية اللامعة ، وفي طليعة الكتاب في العالم « ومن المفكرين الاعلام ، ومن اقدر مفسري الروح الحديثة ، وممثلي الادب العصري ، وكتبه ملأى بالتأملات الجميلة ، والخواطر الحسان ، ولكنه لا يرمي بها الى التحليق في الجواء العالية ، والانتقال الى العوالم الاخرى السامية ، بل يريد ان يكشف لنا عن طريق السعادة في هذه الارض ، وهويحاول ان يستخلص لنا الحكمة العملية التي تعيننا على صدمات القدر ، وعثرات الحظ ، وتجعلنا ننتصر في المعركة ، او على الاقل تهون علينا مرارة الهزيمة ، وغمرة الالم » (٣) . . .

وليس من شك في ان «ماترلنك» كان يتطور تطور «فيرهارن» حوالي سنة ١٨٩٠ متنقلا من الرمزية المتهدلة التي كانت سائدة في مؤلفه : «مشاتل دافئة » وفي مسرحياته الضاغطة مثل « الاميرة مالين » و «المكفوفون» . الى واقعية شعرية تمجد طيب الحياة ، وطهارة الفقراء والبسطاء . لكن عبقريته كانت تحلق في اجواء اعلى ،

---

(١) محاضرة القيت في المركز الثقافي العربي بدمشق . (٢) انظر : معجم القرن العشرين مادة بلجيكا — ص ٦٧٣ . (٣) انظر : الوان من ادب الغرب . تاليف علي ادهم ص ٢٣٠ طبع دار المعارف بمصر . (٤) انظر : الدراما تاليف اشلي ديوكس ترجمة محمد خيري ص ٥٨ . (٥) انظر : الادب المقارن للدكتور محمد غنيمي هلال . (٦) انظر : تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين — تاليف بيير هنري سيمون — ترجمة نبيه صقر . (٧) انظر كتابنا «شعراء رمزيون وشعراء معاصرون» ص ٨٣ — ٨٤ — منشورات عويدات — بيروت.

وتشعر شعورا اقوى بالاسرار ،وتهتم دائما بمؤالفة الموت ، وبالرغم من انه اختار المحاولة النثرية ، والحوار المسرحي في مؤلفاته «كنز المتواضعين» و «الحكمة والقدر» و «حياة النحل» و « الطائر الازرق » فقد احتفظ دائما بخلاصة شعر متكتم ورقيق حتى الضعف احيانا ، وكانت صوفية تاليه الكون تستفيد هنا من تعبير متواضع وكأن وعيا متيقظا يكبح جموح الشاعرية بشكيمة كآبة باطنية ، لان الشقاء والموت والنحيب بلايا لا مفر منها ، في دنيا لا تبقي على شيء ...

لقد استلهم «موريس ماترلنك» روحا جديدة تنسمها من بلجيكا وطنه الاصلي ، وتمتاز مسرحياته الاولى مثل مسرحية « بلياس ومليزاند » بمعالجتها الشعرية لموضوعات اسطورية، ومسرحية « مونافانا » التي حاول فيها ان يعطي قيما اخلاقية جديدة للعوامل الدرامية التقليدية ، ولكنه كمؤلف درامي لم يظهر قوة متماسكة (٤) ...

اما مسرحيته « بلياس ومليزاند » التي ظهرت عام ١٨٩٢ فقد ذاعت شهرتها واحتلت مكانة مرموقة لا في الادب المسرحي فحسب ، بل وفي الادب المقارن كذلك اذ اجمع الباحثون على ان « ماترلنك » استعار موقفين من مواقفها من الشاعر الفارسي «الفردوسي» في ملحمته «الشاهنامة» التي يعود تاليفها الى اواخر القرن العاشر واوائل القرن الحادي عشر للميلاد ، وحسبنا ان نورد ههنا المواقف المتشابهة في المسرحية والملحمة ، لنتعرف على اوجه هذا التشابه ... يروي «الفردوسي» في الموقف الاول ، بكور القائد « طوس » مرحا الى الصيد على زقاء الديكة مع جمع من رفاقه ، واذ هم يوغلون في قلب الغابةابصروا فتاة فاتنة الخدين، رائعة الحسن ، في طلعة كالبدر ، وقامة هيفاء كشجر السرو ، فيبتدرها « طوس » بالسؤال قائلا : انت يا ذات الطلعة الفاتنة والقد الاهيف ما الذي اتى بك الى هذه الغابة ؟ وتجيبهالفتاة قائلة : عاد ابي امس في جنح الظلام ثملا من حفلة عرس ، وما ان رآني حتى تولاه الغضب فانهال علي ضربا ، ولم يكتف بذلك ، بل استل خنجرا ماضيا اراد به قتلي ، فوليت الادبار فرارا ، اهيم على وجهي لا الوي على شيء « ثم راحت الفتاة تقص على « طوس » قصة هربها ، وما حملته معها من مال وفير ، وتاج ذهبي سلبه الحرس منها بعد ان اوسعوها ضربا بقراب السيف » . ثم يروي « الفردوسي » في الموقف الثاني ان البطل « زال » ذا الشعر الفضي الذي ربته العنقاء فوق قمة جبل ، كان يهوى الفتاة « رودابه » ذات المحيا السحري ، وفي احد الايام مضى « زال » الى قصرها ، ولم يكن قد رآها من قبل ، فاطلت عليه «رودابه» ذات العيون السود ، والخدود الوردية من احدى شرف قصرها التي وقف تحتها « زال » فاضاءت بطلعتهاالبهية الشرف كلها وبدت الارض كالياقة من سنا خديها ، ثم ما عتمت ان حلت غدائر شعرها المجدولة من المسك ، ونشرتها فهوت مسترسلة من اعلى القصر حتى بلغت وجهه فغمرته ، وراح يوسعها لثما وتقبيلا فكان صدى يسمع من القصر .. » . اما في مسرحية « ماترلنك » فثمة موقفان يشبهان ذينك الموقفين اللذين اوردهما « الفردوسي » في ملحمته . نرى في الاول الامير « غولو » يعثر وهو يصيد في الغابة الفتاة الفاتنة « مليزاند » وهي واقفة تبكي وحيدة قرب شاطىء بحيرة ، فيبتدرها الامير بالسؤال عن سبب بكائها ، وعما اذا كان قد نالها احد بشر ، فتجيبه قائلة : بلى ...

فيسألها : من ؟ فتجيبه : الناس كلهم، ويسألها : وما الشر الذي نالك منهم ؟ فتجيبه : لن اجيبك لعجزي عن الجواب، ويسألها : من اين اذن اتيت؟ فتجيبه : لقد هربت .. لقد هربت.. ويسألها بعد ان يلمح شيئا يتلألأ في ماء البحيرة .. وما هذا الشيء الذي يتلالا ؟فتجيبه : انه التاج الذيمنحني اياه ، وقد سقط مني وانا ابكي ... فيهتف : تاج ؟ ومن منحك هذا التاج؟ ثم يهم باخراجه ، فتصرخ به محذرة : دعه .. دعه .. لقد زهدت فيه ، وان الموت لافضل عندي من وضعه على مفرقي .. ونرى في موقف آخر من المسرحية « بلياس » العاشق المتيم وهو يمضي الى البرج الذي تقيم فيه حبيبته « مليزاند » وما ان يبلغه حتى تطل عليه من احدى شرفاته وتحني راسها اليه فترتمي غدائر شعرها الطويلة المسترسلة حتى تبلغه من اعلى البرج ، فيهتف : « ان غدائر شعرك تهبط الي يا مليزاند ، وها هي ذي تغمرني فامسكها بيدي ، والثمها بشفتي، واضمها بين ذراعي، وانثرها حول عنقي ، ولم ار من قبل مثل غدائرك يا مليزاند .. انظري .. انظري .. ها هي ذي تهبط من اعلى البرج فتغمرني حتى قلبي .. انها ترتعش وتهتز وترف في يدي رفيف اجنحة الطيور الذهبية » ..

هذان هما الموقفان المتشابهان ، وليس من شك في ان « ماترلنك » قد استعار موقفيه من « الفردوسي » وانه قد تأثر به كذلك ، ولا يتسع المجال هنا لشرح الطريق التي سلكها « ماترلنك » الى الشاعر الفارسي ، وبيان البون الشاسع بين الموقفين في ملحمة الشاعر الفارسي ، ومسرحية الكاتب البلجيكي ، وتوضيح الطابع الشخصي لهذا الكاتب فيما اقتبس ، وحسبنا اننا ضربنا المثل على استعارة

---

(٨) انظر : اميل فيرهارن ــ حياته وآثاره بالفرنسية ــ لستيفان زفايغ ص ١٥ . (٩) انظر : مقدمة : قصائد مختارة لاميل فيرهارن ــ كتبها البير هومان . (١٠) ولد «فيرهارن» في ٢١ من ايار ١٨٥٥ في « سانت اماند قرب انفرس » وقضى حياته تحت عجلات قطار في « روان » في ٢٧ من تشرين الثاني ١٩١٦ . (١١) انظر : تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين ــ ص ٤٢ ــ ٤٣ . (١٢) انظر كتاب: « من اصطلاحات الادب العربي » ص ٨٩ــ٩١ للدكتور ناصر الحاني ــ طبع دار المعارف بمصر . (١٣) انظر : الشعر في نصف قرن ــ الجزء ٥ ص ٢٢٤ ، اصدرته منظمة اليونسكو

كاتب اجنبي من شاعر اجنبي آخر (٥) ، وهو امر شائع منذ القدم في آداب الامم ، ولم يكن قط بدعا فيها ...

ومهما يكن من امر فقد جاء تمثيل هذه المسرحية عام ١٩٠٢ بمرافقة موسيقى « ديبوسي » معبرا بالنص والاوركسترا ، عن رمزية متطورة باتجاه كلاسيكية خافتةمتنوعة باطنية، توحي باهوال قصية ، وبآمال مبهمة. وكان ثمة اتجاه مماثل ظهر في ديوان الشاعر « فان لربرغ » «اغنية حواء» حيث نشيد النفس التي تتخطف باكتشاف الاشياء يلجمه باستمرار تصميم الشاعر الفرنسي « مالارميه» على الا يمسها ، تاركا القارىء دهشا على حدود فردوس متموج ملون ، وسماء ذات نور متألق بالاشعة ، واشكال تشبه الاحلام (٦) ...

اما الشاعر « اميل فيرهارن » فهو اعظم شاعر بلجيكي نظم في اللغة الفرنسية ، ولقد طغت عليه الرمزية ، غب الحقبة الاولى التي استلهم فيها الواقع ، ولكنه لم ينفرد قط في حياته ، ولا اغرب في رؤاه ، بل ظل ابدا مصوبا ناظريه نحو الحياة الواقعية ، يفيء اليها ويعب منها ، فوصف الحياة العائلية الهانئة الرضية، حيث يشترك في افراحها واتراحها كائنان حيان متحابان اشد الحب واعمقه، وتغنى بجمال وطنه وسحره، ومجد انتصارات هذا الوطن . كما جلا حياة المدنية الحديثة ، بكل ما فيها من صخب وضجيج وقسوة وطغيان الآلات الضخمة على جهد الانسانية الخالد ، السائر ابدا على وقع انغام الفرح والداب نحو حياة اجمل ، ومستقبل افضل ، وان رؤاه هذه ليبدعها كلها احساسه العميق الصادق بالحياة ، ويثيرها ايمانهالقوي بمثلها !.

ولقد اتاح له غنى خياله الذي جارى فيه الشاعر «فيكتور هيجو» تحقيق الحوافز المغرية التي تثيرها فيه الحياة . ويبدو ان الواقع قد تغلغل فيه تغلغلا لا حد له ، وان اية فكرة ، ما ان تراود خياله الخصب ، حتى تبرز على حين غرة بشكل صور او لوحة حية !..

اجل ! ان كل شيء يحيا لدى هذا الشاعر العبقري حتى المجردات ، وان كل شيء له عنده غاية وهدف ، حتى الجوامد ، وان كل شيء يتلون فيه بلون حياة عنيفة صاخبة تثير اعجاب قارئه ، وتبعثه على الدهش ... ان هذا الشاعر الواقعي العجيب ، هذا الملهم الجريء الذي ابدع الاساطير قد ظل ابدا واقعيا مغرقا اشد الاغراق في واقعيته ، دقيقا لطيف الرؤى شفافها ، معنيا بوضوح الاشكال وسهولتها ، وجلاء الالوان ودقتها واتقانها ونقائها . ولعل جل جهوده كفنان عبقري قد مالت به الى اكتشاف ينابيع ثرة في اللغة والشعر ، كانت جد ضرورية للتعبير عن تنوع الحياة وتعقدها . وقد استطاع بمبالغته في استعمال الكلمات الجديدة ، وبنكرانه احيانا قواعد الاعراب ، ان يسجل على التو واللحظة الصورة التي تمر بخاطره ، وبرسم اللوحة التي ترتسم في ذهنه . وما توانى قط عن تبني الشعر الحر الذي يتلاءم اشد الملاءمة ودفق شعوره العنيف، وفيض احساسه الزاخر ، والذي اجاز له التعبير عن الدفع التواق للحياة الاجتماعية التي شغف بها ورنا اليها وهام بها . ومن ثم فقد دنا بفضل امتداد الهامه الشعري ونقائه من « العروض العادي » ، مفسحا للشعر المجال ، تاركا له القدرة على التعبير كما يجيء دون تعمل او ارهاص . وان ابيات قصائده الغرر مليئة بالحركات الواسعة ، زاخرة بالاحاسيس الحية التي تستثير رؤى القارىء وتغريه وتوحي اليه بالحالات النفسية الغامرة، مما يؤكد لنا ان قوافيه تسري في دمه ، وهو يستلهم ربة الشعر اذ يقول : « حين افزع الى النظم بلهفة وتوق ، فان اقطار جسمي تهتز وتتألم وتنتشي ، وتتمشى الاوزان في عضلاتي واعصابي » .

هكذا نرى « فيرهارن » شاعر بلجيكا المبدع الذي تغنى بالحياة عامة ، قد وهب من لدنه الحركة الرمزية دفعة جديدة الى الامام ، فتأثر به حوالي ١٩٠٥ الشعراء الذين جاءوا بعده ، وانشأوا « المدرسة الاجماعية » وابدعوا «التعبيرالمباشر» عن الحياة الاجتماعية التي عاشوها بعمق ، كما عاشها «فيرهارن» وخاضوا غمارها بوعي وحب وحنان ، كما خاضها وخرج منها ظافرا (٧) .

ظهرت لفيرهارن اولى مجموعاته الشعرية عام١٨٨٣بعنوان«الفلمنكيات» ثم تتالت عبر السنين ، فنشر عام ١٨٩٣ «الحقول المسحورة» و «المدن المتشعبة » عام ١٨٩٥ و « الساعات الوضيئة » و « التألق الشامل » عام ١٩٠٦ و « الايقاع المهيمن » عام ١٩١٠ و «فلاندر بكاملها» و «السهول عام ١٩١١ ــ يقول « فيرهارن » في قصيدة له بعنوان : حين تغمضين عيني :

حين تغمضين عيني .
قبليهما طويلا ، لانهما سيؤثرانك
بكل ما بوسعهما ادخاره من غرام مشبوب
في نظرتهما الاخيرة ، ومن وقدتهما الاخيرة !
وفي وهج اللهب الخامد
احني لتوديع عيني ، وجهك الحزين
كيما تنطبع وتخلد فيهما صورتك الفريدة
التي ستحرصان عليها حتى القبر !
ليتني احس قبل ان يغلق اللحد
بيدينا تتحدان على سريرنا الابيض النقي
واشعر بخدك يستريح لآخر مرة
على الوسادة الشاحبة
قرب جبيني
واما مضيت اثرها بفؤادي بعيدا
فؤادي الذي يحتفظ لك
عبر الارض الصلدة الموات
بلهب قوي
فسيشعر الموتى بوقدة هذا اللهب!!..

ويقــول في قصيــدة له بعنوان :

العمــل

انا مضن بالكلمات ، مضن بالكتـب

التي توهن العزم

ابحث في قرارة زهوي

عن العمل الذي ينقذني ويعتقني .

* * *

الحياة ، انها هناك ، عنيفة ، خصبة

تنهش في سرعة جنـونية ، دروب

العالم الكبيرة .

في الضوضاء والغبار

وقد تعلق الاقوياء بذوابتها

ونهضوا متكئين عليها وعلى وثباتهم

فتراهم من معجزة الى معجزة

يتسلقون الجبال ، عبر المطر والريح

في اقدام وتارجح .

* * *

العمل !

انا عليم بمثوله في الهواء

مأساويا ، فوق سماء عاصفة .

باسطا ذراعيه المضرجتـين بالدماء ،

مرسلا صيحاته الجنونية

ومنهم من يحلم به ، اصم ، سحيـق

القــرار

كبحر

اذ يقذف قراره الامواه وبعيدها .

انا عليم بانهم باملون لقاءه مسربلا

بصمت ساحر ، بورود وتماثيل .

* * *

انا عليم بانهم يطلبونه في كل مكان

اما انكمش الالم ، وجنت النهـايـة

جنونهــا .

* * *

انا عليم بانهم يعاودون البحث عنه

طوال الليل ، حتى مطلع الفجر

ثم لا يلبثــون ان يبصروه واقفا على

عتبة

* * *

زهوهم العذب الرائق .

الحياة في صيحتها او في صمتها ،

الحياة في خصامها او في وئامها ،

مع الحياة ، مع الموت ،

الحياة فظـة غليظة ، الحياة عسيرة

قاسية ،

انها هناك ، طي قطبيـن مـن البلور

الابيض

حيث يبتدع المرء دربا بطيئا

انها هنا ، في الغيرة او في الضغينة

التي تند من الجبل الصاعد ، ومـن

شوق الانسان اللاعج ،

انها خلال او اذي البحار وهولها

فوق شواطىء ليس فيها من ينقر عن

الهول ،

انها في الغابات ذات الازهار المنغم ،

الذي يزين جبال افريقيا وجزرها ،

انها حيثما ينمو كل جهد

من ايماءة الى ايماءة ، صوب اللانهاية،

حيث تستاصل العبقرية التاويل

صارخة بالاعمال ، مبدية الاسباب

اذ تعد لوثبة العمالقة المقمصين .

* * *

انــا مضن بالكلمات ، مضن بالكتب ،

ابحث في زهوي

عن العمل الذي ينقذني ويعتقني .

* * *

اني ابتغيه قويا عنيدا

جليا نقيا ، ككتلة ثلج جميلة ،

لا يعتريه وجل ، ولا تساوره خديعة،

جديرا باولئك

الذين لا يرفعون الزهو الصامت

بعيدا عن العالم ، الا من اجل ذواتهم .

* * *

اني ابتغيه مخضلا بماء مقدس

بطهر الانسانية وشمولها

مبديا للجميع كل ما يعتمل به صدره

من نقاء قلب

مجنبا عنه في أوج سطوته

حدود طيبته .

* * *

اواه ! انــه يحيا ويحيــا ويحيا ،

ويحس بانه الاحسن

قياسا الى نهاية كل ما يعتلج في قلبه

من غيرة ،

انه يحيا اشد وضوحا ، منــذ ان

يمضوا فاتحين ،

ويحيا اعلى علوا ، منذ ان يعـانـده

الحـظ

فييبس النسغ ، ويوهـن من قـوة

الساعديـن ،

انه يحلم ، وعيناه تقتحمان كـل مـا

سيصنعه ،

من نقاء ، من كبر ، ومـن بر هـؤلاء

الكنعانيين

الذين سيدفقون مع ذلك حتى نهاية

الجهد المقدس ،

اواه ! انه يحيا ، ويحيا ، هائما

في هذه الساعات من الوحدة السامية

حيث تستعر الرغبـة ، وتنتعـش

الفكرة

مع امانيهم المجنونة ، ووجودهـم

العظيـم .

* * *

انا مضــن بالكلمات ، مضن بالكتب

ابتغي اخيرا السيف الذي يشحذ

ظفري في المعمعة .

* * *

واحلم ، مثلما يصلون ، بجميع اولئك

الذين يبرزون ابطالا كانوا ام آلهة

حيال افق الاسرة البشرية

وكانهم اقواس غمام عجيبة

ليقيموا فوق ممالك

البؤس والضغينة ،

اشراقات سلوكهم الحسن

نافذين في رود ومهل حتى اعمـاق

المعابد ،

حيث يبتغي الجمهور

ـ على غرة ـ ان يحب ، يبتغي ان

يعـرف

المعنى الجديد الذي فرضه وجـودهم

بقـوة

على الغاز القدر

كيما يكون روحه على مثال صورتهم

بينمــا يتصارع الكهنة والحكمـاء

ويتناحرون بضربات نصوص ميتة

عندها تشاهد الالفاظ المسلحة

وهي تسود الصراع والمآثر

بارزة تصعد فوق الجباه

رنانة تسود الصيحات

كصاعقة وذهب

تحلق بعيدا فوق شهرتهم :

عندها كذلـك ، يعافها اولئك الذين

يدفئون ارواحهم

بمواقد ذكرياتهم القديمة ، ويقبضون

السيف اللاهب

واثبين صوب المستقبل !...

هكذا غنى « فيرهارن » الشاعر الفريد الذي لم يلبث ان غدا وحده بين شعراء جيله ، نافعا اجزل النفع لمعاصريه ، ملائما لهم كل الملاءمة ، والذي ما كان ليشق عليه أن يستلهم مزهوا جمال وضرورة الاشياء والناس من حوله ... هذا الشاعر المحلق الذي افرغ كل ما لديه من طاقة ، ليحل الوئام ، ويحقق الانسجام بين رقة قلبه ، ورهافة حسه ، وعمق وجدانه ، وبين ما يماثلها مما يصدر عمن يحفون به ويتجاوبون معه ، والذي لم يكن ايقاع قصائده الا صدى حنونا لما تردده الحياة ، فكان خفق قلبه كان ميزانا يزن وقع خطى عصره العجلى المترنحة ، وكان دم معاصريه يجري في عروقه لم يزدر قط ما اتت به المثالية القديمة ، لانه شاء ان يبدع منها مثالية جديدة .

وهكذا عاش « فيرهارن » الانسان ، الكريم النفس ، الذي عرف نظام الاشياء ، فسكنت نفسه الى كل شيء عرفه او اتصل به ، لسهولة فهمه اياه ، ويسر استجابته له . فكان حب الحياة الذي تغلغل في كيانه ، وشمل جسده القوي ، وعانق روحه الملتهبة ... وكان حب الحياة هذا مكنه من تناول الاشكال والنماذج الاشد تباينا ، والتي جربها بنفسه ، فوجد حتى في تباينها سعادة وهناءة ، فكان بها سعيدا هانئا (٨) .

ولكم كان جميلا من القدر لو انه ادرك غنى حياة هذا الشاعر الانسان، او الانسان الشاعر ، فأبقى عليها . ولكنه هو الذي ظل قابضا عليها بكفه، ما عتم ان القى بها في طرفة عين ، تحت عجلات قطار فحطمها شر تحطيم (٩) .. وما ان دوى نبا المأساة في ارجاء العالم المتمدين ، حتى خيم الوجوم على معاصريه ، وران الاسى على وجوههم ، وكاد الجزع على فقده يلم بهم ، واليأس يعصف بنفوسهم ، بل كادوا يضيقون ذرعا بالقدر لولا انهم تلفتوا فألفوا آثار شاعرهم المجتبى بين ايديهم ، وكأنها تعبر لهم عن اطمئنانها ، بانه ماثل امامهم ، يشاركهم معها افراحهم واتراحهم ، او كانها تؤكد لهم ، ايمانها العميق ، بانه سيظل حيا في وجدانهم ، كما هو حي في وجدان البقاء (١٠) ...

من الواضح ان الادب البلجيكي في اللغة الفرنسية ، لم ينقطع منذ عصر الرمزية عن النماء ، بل ظل في قرن واحد مع الادب الفرنسي ، حتى بدا وكأنه فرع من فروعه . ولئن تراوحت مميزاته بين الصعود حينا والهبوط احيانا الا انه امتاز بخير الصفات التي عرف بها الادب الفرنسي بوجه عام « وهي دقة التعبير وسلاسته ، ووضوحه واشراقه ، مع رشاقة اللمسات والتزام الاعتدال ومجافاة الغلو والاسراف » . وبوسعنا ان نذكر اشهر كتاب القصة البلجيكيين امثال لويس دولاتر، وجورج غارنييه، وهوبرت كرانز ، وموريس دوزمبيو ، وادمون غليسنر ، وهوبرت ستيرني ، وبلانش روسو ، وهنري دافنيون ، وجورج فيريس ، وفرانس هيلين ، وفان هوفيل .

وممن اشتهر من الشعراء امثال : جان دومينيك ، وجورج مارلوي ، وجول دولاكر ، وتوماس براون ، وبيير نوثومب ، وموريس كوشيه ، ولوسيان كريستوف .

وممن اشتهر من النقاد وكتاب البحوث امثال :

دومون ويلدن ، وجورج رانسي ، وفيرمان فان دنبوش ، وموريس ويلموت ، وفيرنس جيفرت .

كما اشتهر من كتاب المسرحية : غوستاف فان زيب ، وفونسون ، وويشلر ، ومرغريت دوتيرم ، وشارل دوماسي ، وكروميلنك .

تلك هي المراحل التي مر بها الادب البلجيكي ، والوجوه الادبية النيرة التي جهدت في دعمه بمواهبها وعطائها الخصب منذ ظهوره الى الوجود حتى عصرنا الحاضر ، وهي التي فرضت وجودها على الادب الفرنسي ذاته وهي التي دفعت مؤرخيه مرغمين على اكبارها ، وعدم اغفالها عند تأريخهم لادبهم، وتخصيص مقام لها فيه ، بخاصة الشعراء الذين كتبوا باللغة الفرنسية وواصلوا بعد سنة ١٩٠٠ الاندفاع الرمزي الكبير في بلجيكا ، وليس ادل على ذلك من اعتراف بيير هنري سيمون في كتابه القيم « تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين » بمنزلتهم واسهامهم في اغناء الادب الفرنسي اذ قال : « ليس من شك في انه كان يوجد بين المذهب الجمالي الاثيري لسنة ١٨٨٥ ، وبين جو بلاد الفلاندر ، انسجام طبيعي ظهر في قصائد وقصص « رودنباخ » ومسرحيات « ماترلنك » الخيالية فما كتبه هذا الاخير تحت عنوان الاميرة مالين سنة ١٨٩٠ ، وما كتبه الاول تحت عنوان : بريج المائتة سنة ١٨٩٢ ساهما مساهمة واسعة في تعميم الخيال الرمزي الذي كان خاصا آنذاك بعدد قليل من القراء . بيد أن العبقرية الفلمنكية لم تلبث ان وجهت المذهب الرمزي في اتجاهين بدلا من نزعاته الاصلية ، فقربته من مظاهر الاشياء ، واعادت اليه اطاره المادي او الاجتماعي ، ثم شفته من العدمية المظلمة، ومن الكآبات المريضة لكي تنفخ فيه روح التفاؤل وتغني فرح الوجود ، وحتى عظمة وجمال الحياة العصرية » (١١) ..

وثمة وجه الف الغرب النظر اليه ، والاعجاب به ، بعد ان شاقه سحر غنائه ، وراقته عذوبة النغم الذي يصدح به ، اذ لامس الافئدة التي آدها عبء الآلة ، وحرك النفوس التي ملت سماع ضجيجها ، فبعث شجاها على مصير الانسان ، وتوقها الملح الى نشدان الطمأنينة والهدوء ، كيما يعيد الغرب ما افتقده من قيم ، ويؤكد رسالته في المحبة والاخاء .

ولست اشك في ان الشاعر « جورج لانز » هو هذا الوجه النير الذي تألق لا في سماء الادب البلجيكي فحسب ، بل في العالم الغربي كذلك، بما عرف عنه من اخلاص لموهبته ،

وتفان في نشر دعوته ، وخصب في عطائه الشعري ...

جورج لانز

قيل انه ولد في مدينة « لييج » في شهر آذار من عام ١٩٠٠ وان اسمه اقترن بشكل وثيق بظهور الشعر الحديث في بلجيكا ، وانه في اعتناقه « المدرسة المستقبلية » ودعوته لها يشبه خدينه الشاعر « موكل » في اعتناقه الرمزية والدعوة لها ... « والمستقبلية حركة ادبية اوروبية ، اعلنت انفصالا كاملا عن الماضي ودعت الى صور جديدة للموضوعات والاساليب ، لتواكب روح العصر الجديد الناهض ، الذي عرف الآلة والطائرات والمعامل الاوتوماتيكية ، والسرعة الهائلة . وقد تبنى معتنقو هذه المدرسة ، التعبير ، من احدى قصص « مارتيني » . وتغذت هذه الحركة وانتعشت بفلسفة « نيتشه » و « سوريل » و « برغسون » ولكنها نشطت وقويت على يد « فيليبو توماسو مارتيني » الذي ولد وعاش في الاسكندرية ، وكان ينظم باللغة الفرنسية . واصدر عام ١٩٠٥ مجلة « شعر » التي كانت لسان حال « الشعراء الكبار المتحمسين » الذين اصبحوا قادة المدرسة المستقبلية فيما بعد . وانبعثت المستقبلية كحركة ادبية حين اصدرت جريدة « فكلرو » بباريس في ٢٠ شباط ١٩٠٩ «بيان المستقبليين » وقد تخطى هذا البيان الادب والفن ، وجاء بنظرية سياسية تهدف الى الاعتراف بفلسفة «نيتشه» و « سوريل » وآرائهما لاسباب قومية . وذهب الى ان الحرب هي العلاج الوحيد للمشكلات البشرية . وقد وجد المستقبليون في «الفاشية» ما ادى بهم الى اعتناقها واعتبارها مواكبة لفلسفتهم . ولهذا تبناها الحكم الفاشي في ايطاليا رسميا . بيد ان « مارتيني » لم ينعم طويلا ، فسرعان ما تخلى عنه اصحابه الرواد .

لقد هاجمت المستقبلية اصول الحضارة الاوروبية المعاصرة ، وكانت لا تتقيد كثيرا بالقواعد والمعارف الموروثة، ولكنها بالرغم من هذا وجدت لها انصارا كثيرين من فناني اوروبا وادبائها . وتأثرت بها كثيرا من الحركات الفنية فاقتفت اصولها ، كالحركة « التكعيبية » في الرسم والمدرسة « التعبيرية » و « وما فوق الواقعية » . وانتشرت «المستقبلية» في روسيا قبل الثورة الشيوعية فانقسمت الى مدرستين تسمى الاولى «المستقبلية الذاتية» التي كان يقودها « ايقور سيفيريانن » الذي سيطر على « سان بطرسبرغ » بنحوه المشوه ، وبغلو عباراته وتحذلقه .

وسميت المدرسة الثانية «التكعيبية المستقبلية » وكان من انصارها « فلاديمير ماياكوفسكي » الذي نشر عام ١٩١٢ مع بعض اصحابه بيانا سموه « صفعة على وجه « ذوق » الجمهور » وقد تبنى هذا البيان ما سبق ان نشره «مارتيني» عام ١٩٠٩، ولا بد ان نذكر أن « ماياكوفسكي » حاول التملص من مذهبه تدريجيا بعد الثورة الشيوعية » (١٢) من هنا ندرك ان من واجبنا اعادة النظر في كل ما يتصل بتصورات الشاعر «جورج لانز» الذهنية التي تخيلها عن السعادة والبؤس ، والحب ، والمجد والجمال ، وان كنا نلحظ ان ثمة عالما يموت وعالما يولد لدى هذا الشاعر ، ومع هذين العالمين تولد قصيدة تبدو بواكيرها وكأنها نبوءة من النبوءات التي تراود ذهنه ، كما نلحظ كذلك انه لم يلبث ان جعل من نفسه معلما وهاديا ، اذ امضى زهاء عشرين عاما (١٩٢٠ — ١٩٤٠) يناضل في مجلة «المنتخبات» من اجل الاداء الحديث في الفنون كافة ، وقد كان لهذه المجلة من شمول التأثير ما رددت اصداءه انحاء العالم .

ان « لانز » على حد تعبير « روبير فيفيير » يشعر بعنف ، ان واجب «الشاعر المحتم» ، هو واجب الحضور المنفتح على العالم ، وواجب الاصغاء كذلك .

وهو في مجموعاته : « الروح المزدوجة » و « خطر الموت » و «سر اوروبا » و « قصيدة معجزة وجودنا» او قصيدة « المدينة التي تحلق فوقها الاحلام » يشعر — فيما وراء الوان الحياة البهيجة — بشيء من الوقار الذي يدع القارىء واعيا فجاة خطورة مصيره كما يقول « كاريم » .

ان « جورج لانز » لم يتوان قط في « بياناته الشعرية » عن التأمل في فنون عصرنا ، مع علمه « بوجود طلاء فوسفوري غريب يغطي احقر الاشياء ، فكأن الشعر لم يكن لديه سوى ما للاشياء المألوفة من صفات خارقة » . وحسبه انه يحتل اليوم في الادب البلجيكي مكانا مرموقا بل مكانا منفردا لم يجاره فيه شاعر . ولقد اصدر العديد من الكتب والبحوث ، كما نشر دواوين شعرية تعبر اصدق تعبير عن مذهبه الشعري، ضمنها نظرته الى عصره ، واودع فيها خشيته من انهيار القيم الانسانية التي كان العالم يؤمن بها ، فاتت الآلة تضع كل ثقلها عليها لتحطيمها ، مما جعل الانسان الغربي حائرا مغلوبا على امره ... ومن اهم اثاره الشعرية دواوينه : « هنا » اصدرته عام ١٩٢٠ « جماعة الفن الحديث » في لييج و « قوى العصر » صدر عام ١٩٢٤ و « الروح المزدوجة » صدر عام ١٩٢٧ و « جسر » اصدرته عام١٩٢٩ مجلة « الثقب » و « خطر الموت » اصدرته عام ١٩٣٤ مجلة «المنتخبات» و «عواصف تجتاح فرنسا» اصدرته عام ١٩٣٥ مجلة « ماشي الحال » و « قصيدة نهاية المدن » اصدرته عام ١٩٣٧ مجلة « الحكمة » في باريس . و « سر اوروبا » اصدرته مجلة « المنتخبات » عام ١٩٣٨ ، و « قصيدة المدينة التي تحلق فوقها الاحلام » و « قصيدة معجزة وجودنا » (١٣) ..

واليكم نماذج من شعره اخترتها من بعض دواوينه ، تمثل مذهبه ، وتدل على اتجاهه الشعري الذي آمن

به ، ودعا اليه ، وناضل من اجلـه ، فاستطاع بما له من مكانة مرموقة في الادب البلجيكي ، وبما منح من موهبة شاعرية فذة ، ان يحوز رضاء النقاد ، ويحظى باكبر حظوة لدى متذوقـي الشعر في العالم ...

ثمة في ديوانه «سر أوروبا» تطالعنا « قصيدة عابسة » يقول فيها :

البرد شامل ،
ساج ، داج .
ليس في قلب النبات
ولا في كبد السمك
ولا في غور المدافن
ولا فوق الفولاذ .
هوذا عنف القطبين
ونبل الجليد
وحمال الماموث المنسي .

* * *

هي ذي البنادق كلها
وقد جمدها السلم .

* * *

لم يك ذاك البرد
اليقظان عند تخوم السرعة ،
لم يك ذاك البرد
الذي يتقدم الانسان
ويقتفي أثره ...
انى لي ان أشرح لكم
ان الشتاء يحكي
مدية ذربة
حدها مرهف
كانه نور ..

* * *

ما عساي ان اروي لكم عن هذا البرد
الذي ينثال من القصائد العصماء ؟

* * *

ان كل امرىء اذ يعجز عن ادراك مـا هو خير منه
يعتمد على الدفء الارضي
فيداعب
هذا الدفء
زاعما
انه هو ذاته هذا الدفء
مع قليل من هذه الآلات ،
الموضوعة بجلاء
كأنها الصوى
ومع كل هذا الدفء المبتكر
الذي يبعث فيه صيحة السعادة
كأن وجه الجحيم
لم يبد البتة
فوق آفاقنا باسرها
على هيئة مدفع ...

ونقرأ في ديوانه « قصيدة معجزة وجودنا » قصيدة المستقبل والضحك التي يقول فيها :

بشيء من الفة
نراهم يمضون متجهين
صوب الميادين المقدرة لهم
المدن وتماثيل المستقبل .

* * *

ان يكتنفهم شجر
فذلك شيء رائع حقا .
وليس من شك
في أننا نربح مرارا
بهذه اللعبة الدقيقة التنظيم
اذ لا شيء يقف حائلا
دون مسرى هذه الاجرام المتحركـة المحكم
فلا حد يقتنا
ولا دارنا
ولا نظراتنا
ولا ما عز علينا من مال
وما ذخرناه
من نفائس وتذكارات
ومن اياد صديقة ، ومن بسمات ،
لا شيء يقف حائلا دون مسراها .

* * *

الا ان هذه القطع من الاساطيل
ومن مدن حديثة
ومن شجر وتماثيل
هذه الجحافل الجرارة من المحركات المتقنة الصنع
تحرر الغافين ، وتعتق الغافلين
تحررهم وتعتقهم من ربقة القلق الذي تثيره احلام قديمة .

* * *

ثمة مدن
ثمة شجر وتماثيل
ثمة حيوات آلية
هي اجمل من العيون وابهى !
اما انت ، فما ان تدنو دنوك الاكيد
حتى يضج الاطفال بالضحك سعـداء هانئين .

* * *

وان ضحكهم
هذا الضحك ذاته
هو الضجة الاشد غرابة
التي دوت
في ارجاء الكون ...

كما نقرأ فـي هذا الديوان نفسه « قصيدة الى اجمل معرفة » يقـول فيهـا :

الدار غافية
فوق الرابية
دافئـة
سعيدة لانها دار .
يكتنفها من كل جانب
في الحقـول
قوم يخالون
ان الحجر البري ينمو ببطء .

* * *

هكذا تعم العالم
صورة حلوة ماكرة
يتيه المرء في اكتشافها
ولكم يهلك
في بعض الاحيان
من التمتع بها .

* * *

اما نظرتنا نحن
فانها حزمة من نارنا
وهي غاية في الالتواء
غاية في انهاك القوى
وانها لتضعف في اجواز الفضاء
الذي يرقص
ثم يرقص
وكأنه ساحر
حتى لكأن نجمة في السماء
تسهم في هذا الفرح
وهو امر ليس مـن العسير علينـا فهمه ..

* * *

انها تدور ،
في فلك دفئه
في فلك برده
في فلك عبثه
وهي سعيدة هائئة
كالـدار ...

***

دور
نجـوم
فصول
حجر نام
ليس ثمة شيء يشذ عن القاعدة
كيما يغدو
ميتا وحيـا معا

***

اترى يمسي هذا
اروع معرفتنا :
الا ان لكل منا الفضاء الذي يستحقه
فضاء دخاننا
وفضاء قنابلنا
هذا الفضاء
الذي تجرر ملائكتكم فيه اذيالها ؟
اما بالنسبة لي

***

فالفضاء جل ان يوصف
ما دام يرقص كساحر ...

واخيرا في ديوانه « المدينة التي تحلق فوقها الاحـلام » « قصيـدة اللامتناهي القريب » يقول فيها :

الظـل
النـور
النـار
المـاء
الحجـر
بعض عيـون
بعض اجساد
تلك كل قصيدة الارض .

***

يقولون : « امكن هذا ؟
اني لارى الى زاوية الكون
بنجومها القصية
وهي تجلو كروية الثمار » .
يقولون : « امكن هذا ؟
ان تغدو مشاهدها
مغلقة بين ذراعي :
سفوح اودية
تراخي جليـد
ضحك غابات
تتجلى كلها امام بهرة البحار ؟ »

***

ما عساي ان اعرف في غير هذاالمكان؟
غير وجوه الكون
وقد تكدست من حولي
وكانها ذخر غريب
تكدست بازاهيرها
التي تستافها البهم
تكدست باجنحتها
بمدنهـا
بصيحاتهـا
تكدست بآلاتها
وحتى ببعض بنادقها
التي شدت الى موتها الحديدي ؟.
يقولون : « امكن هذا ؟
ان تغدو خفايا الكون واسراره كلها
احيانـا
قطيع رعب
يكتنف اطفالا صغارا رائعي القسمات
ينمون مع الزمن كانهم فجر يطلع ؟.

***

ارجو ان اكون قد وفقت بعرضي الوجيز لمجمل الادب البلجيكي قديمه وحديثه .. وان اكون قـد نبهـت الاذهان الى ما فيه من الوان وقيـم جمالية ، ومن تجارب خصبة اسهمت كلها في الادب الغربي ، وغدت القوة المكيفة له ، والطاقة الفعالة لديه ، ولا مشاحة في ان ادبنا سيغتني ويخصب، ان نحن التفتنـا الى هـذا الادب ، واوليناه بعض ما نولي سواه من عناية واهتمام . لا سيما ونحن مقبلـون على تثبيت دعائم نهضة ادبية حديثة، تتطلب منا جهدا في البناء ، لا يقـل خطورة عما نبذله من جهود في سبيل التقدم والرقي ...

ان اي لون من الوان الادب ـ مهما كان شأن هذا الادب ـ تخصه الامة وحده بعنايتها لن يعوض عما تفتقده من آداب الامم الاخرى ، وان خير ما في الاخذ ، هو ما يبعث على التجديد والنماء ، وما يثير الانفعال في الآخذين به ، لروعته وجماله وعمقه ، ومـا يشحذ التجربة ، ويخـدم اغراض الحياة ويسهم في دعم قيمها ، ولن يزدهر ادب امة قط الا في حيز هذا الاخذ الذي يحيا ان لقيه ، ويموت ان فارقه ...

ان ادباءنا ومفكرينا مدعوون اليوم الى الاضطلاع بهذه المهمة ، مضطرون الى الاطلاع على ثقافات الامم وآدابها، واقتباس ما ينفعنا منها ، وما يدفع عجلة تطورنا الادبـي والفكـري الى الامام ، ويمكننا من ابداع ادب خاص بنا ، نطبعه بطابعنا ، ونسمه بسماتنا، وليحـذروا من الكبرياء بثقافتهم ، والخوف عليها ، لان الامم اذا اخذتها هذه الكبرياء « فذلك دليـل علـى امرين : فاما ان يكون تثقفها حديثا فلم تعتده ، واما ان تكـون ثقافتها قـد انحدرت نحو التخلف فتحـاول ان تنكر التخلف والعجـز ـ حتى عـن نفسها ـ وتحجبه بستار من التفاخر بالامجاد الماضية » . ولست اشك في ان دور كبريائنا بثقافتنا وخوفنـا عليها ، سيجعلنا رهيني محبسين من كبرياء وخوف لن نستطيـع منهمـا فكاكا ، ولن نقدر على تحقيق غاياتنا، وبلوغ اهدافنا ، وحسبنا عبرة ما قاله شاعرنا « المتنبي » :

ولا فقى حاجته طالـب
فـؤاده يخفق من رعبه

ومهما يكن من امر فان ثمة سورة من النشوة بدانا نخبرها في نهضتنا الادبية والفكرية الراهنة ، وكاني المح اليوم فجرا جديدا يبزغ لتحرير ادبنا وفكرنـا ..

تحريرهما من خوف الكبرياء
ومن كبرياء الخوف ...
«ربَّ هجرٍ يكونُ من خوفِ هَجْرٍ
وفِـراقٍ يكـونُ خوفَ فـراقِ»

دمشق **سعد صائب**



حسن فتحي خليل

الشاعر هايني وغرامه العجيب

بقلم حسن فتحي خليل

هنريش هايني شاعر الماني موسيقي الالفاظ ، ولد عام ١٨٠٠ ، وبدأ حياته في هامبورج يعمل في مصرف عمه ، ولكنه كان فاشلا مما اضطر عمه لان يرسله الى بون لدراسة القانون عام ١٨١٩ ، وحينئذ بدأت تظهر بوادر نبوغه الادبي .

وانتقل بعدها الى برلين حيث عكف على دراسة اعمال كبار الادباء والشعراء حتى تمكن من نشر اول مجموعة شعرية له بعنوان « النبوغ » عام ١٨٢١ ، ثم كتب بعض المآسي التي لم يكن النجاح من نصيبها . وظل مواظبا على دراسة القانون حتى تخرج عام ١٨٢٥ . ثم انتقل بعد ذلك بين لندن وميونيخ وايطاليا . واقام بعدها في برلين وهامبورج .. ثم استقر اخيرا في باريس عام ١٨٣١ ، ولكنه مع ذلك كان يزور بلاده من حين الى آخر .

وقد استقبل في باريس استقبالا طيبا من كبار الكتاب والادباء مثل جورج صاند وموسيه وهيجو .. وتفرغ للتاليف والكتابة في الصحف .

وكان في بدء الامر يتناول مرتبا سنويا من عمه ، ولكن لما تقطعت بينهما الاسباب وهو في باريس منحته الحكومة الفرنسية معاشا سنويا باعتباره لاجئا سياسيا ، كغيره ممن يميلون الى الافكار الثورية وكان نصيبهم الطرد من المانيا . وكتب وهو في فرنسا اشهر كتبه . وفي عام ١٨٤٨ اصيب عموده الفقري بمرض اتعبه طويلا ، الا انه لم يمنعه من مواصلة التاليف .

ولم تخل حياة هايني - كغيره من العباقرة - من قصة غرام ، ولكنه كان غراما عجيبا شاذا أثر في حياته اثرا بالغا .

فلقد حدث يوما ان حل الربيع ضيفا على باريس ، فداعبت النسمات الرطبة اكمام الزهور المتفتحة المنتشرة في كل مكان ، وانبعثت الضحكات من قلوب العذارى عالية مجلجلة ، وساد المرح كل شيء .. حين وقفت ماتيلدا ميرا في واجهة محل بيع القفازات تحاول وضع باقة من الزهور في مكان لائق بها ..

كانت في جمال الورد المزدهر بين يديها ، لا تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها ، سعيده ، مرحة ككل ما يحيط بها . وجالت بعينيها فلاحظت شابا وسيما يدمن النظر اليها ، ومع انها قد اعتادت مثل تلك النظرات من امثاله من الشباب ، الا انها احست فجاة بالدم يتصاعد الى وجنتيها النضرتين ، وبالاضطراب يسري في جسدها المدن .

وكان هايني حينئذ شابا انيقا في نهاية العقد الثالث من عمره ، جميل الطلعة ، ازرق العينين ، جعد الشعر ، رقيق الملامح ، ينطق طابعه بالذكاء والمرح . وما ان دلفت ماتيلدا الى الحانوت حتى تبعها الى الداخل وطلب منها رؤية بعض القفازات ، ثم سالها :

- هل يملك والدك هذا الحانوت يا انستي ؟

- كلا يا سيدي انه ملك لخالتي .

- هل انت باريسية ؟

- كلا يا سيدي .. انا من الفلاندرز ، وليست لي خبرة بالمدن بعد ، فلقد نشأت في الريف .

وتأملها .. كانت تفوق كل من عرفهن من قبل جمالا وصلاحة وشبابا . واعاد يسالها :

- ما اسمك ؟ انا هنريش هايني ، معروف في المانيا ، ولربما سمعت شيئا عن عمي المليونير هايني في هامبورج .

فهزت رأسها وهي تعد له القفاز الذي اشتراه ، ثم قالت :

- اني ادعى ماتيلدا ميرا ، ولا اعرف شيئا عن الدنيا بعد .

كانت هيفاء غزيره الشعر ، ولكن اهم ما لفت نظره هو عيناها الواسعتان ، وضحكاتها المرحة ، وحركاتها الرشيقة ، ولفتاتها اللطيفة ، وصوتها الموسيقي الهادىء .

وحدث نفسه : انها من الطراز الذي كنت ابحث عنه دائما ، لقد مللت هؤلاء النساء اللامعات الخادعات ، اما هذه فهي فتاة غرة ساذجة تبدو وكانها جنية من جنيات الخيال .

ودخلت خالتها ، وما ان حاولت تانيب ماتيلدا حتى رأته فعرفته . كان معروفا في باريس باسرها كما كانوا يعرفون عمه المليونير .. فتوقفت ولم تنبس ببنت شفة .

وهكذا ترك هايني مجتمعات باريس وجعل يتردد على هذه الفتاة في حانوتها تحت سمع وبصر خالتها ، ولكنه سرعان ما اكتشف انها كانت قاصرة الذكاء ، شرهة محبة البذخ عادية الصفات .. ولكن اهم ما يميزها هو جمالها الفتان .. واذا به يضحي اسير هواها واحس انه لا يمكنه

ان يمر يوم دون ان يطيل النظر اليهـا ، او يستمـع الى صوتها وجلجلة ضحكاتها . وكان المعروف عنه ان عواطفه متقلبة لا تستقر على حال ، الا ان الغريب في الامر انه وجد في تلك الفتاة التافهة مثله الاعلى !

ولما كانت الفتاة من عائلة طيبة ، فقد تقدم الشاعر الى خالتها يعرض عليها الزواج من ماتيلدا .

فقالت : سافقد مساعدة لها قيمتها لدي ، ولكن . .

فأجابها : اني املك الآن كثيرا من النقود ، وابيع اشعاري بثمن طيب يا سيدتي . .

وانتهت الصفقة فدفع ثلاثة آلاف فرنك وتزوج من ماتيلدا . وتعرض بذلك لسخرية اصدقائه الذين كانوا يتساءلون ترى كم من الوقت سيدوم هذا الزواج . . فهي لا تملك اية لمحة من لمحات الذكاء .

ولكن هايني كان مندفعا في حبه كما لم يفعل في حياته من قبل ، وكتب الى امه واخته في المانيا يصف زوجه : « انها تملك انقى قلب . . وهي طيبة كملاك » .

وجلجلت ضحكات ماتيلدا في جو المنزل ، والقت الاشعار التي كتبها لها هايني جانبا . . ارق اشعاره واصدقها عاطفة ، واشترت ببغاء اسمه « كوكيت » . وكره هايني الببغاء لساعته ، لتلك الجلبة والضوضاء والصخب التي كان يملأ بها المنزل .

وكان يحتج على وجوده دائما فتذهب احتجاجاته في غمار ضحكاتها الرنانة .

ولم تكن مضايقاته مرجعها الى الببغاء فحسب ، بل لان زوجه كانت لا تلقى بالا الى نظافة المنزل او ترتيبه ، كما كانت اكولة نهمة ، بخلافه هو الانيق الذي ينتقي طعامه في دقة ، وكانت تبذر نقوده ذات اليمين وذات الشمال .

وتلفت هايني حوله فاذا بالراحة والصفاء اللذين كان ينشدهما في منزله انما هما مجرد سراب ما دام هناك ذلك الببغاء يعكر عليه دائما صفو السكون بصراخه المتوالي .

وقال له احد اصدقائه : « لن يمكنك احتمال ذلك . . لماذا لا تهجرها ؟ » .

فأجابه : آه ! لو امكنني أن اتخلص من الببغاء فحسب .

كان ما يشعر به اعمق من الكراهية . . انها الغيرة التي طغت على مشاعره وغزت قلبه ، فان ماتيلدا تحيط الطائر بالمزيد من عواطفها التي تحبسها عنه هو .

وأمكنه بمساعدة صديقه ان يدس السم في طعام كوكيت . وما ان علمت هي بذلك حتى صرخت وولولت في ضيق قائلة :

لقد اصبحت الآن وحيدة لا يؤنسني احد في هذا العالم القاسي .

وكانت ما زالت تبكي وتصيح وتنشج حين سألها هايني في حزن :

« اولست انا بجانبك ؟! . . الا تشعرين بوجودي ؟ »

فصرخت : « انا لا اشعر بك . . » .

فضحك صديقه . ولكن كل ما فعله هايني ازاء تلك الاهانة البالغة هو أن خرج واشترى لها ببغاء آخر سماه كوكيت رقم ٢ ، وكان في هذا العمل اكبر العزاء لزوجته .

وكم حاول أن يثقفها ، فقد كانت امية تجهل القراءة والكتابة ، خاصة وانهما كانا يختلطان بالطبقة العالية في باريس ، فالتحقت بأحدى المدارس لمدة عام واحد ولكنها لم تحصل من العلم سوى القليل ، ولما غادرتها لم تحاول قراءة كتاب واحد بعدئذ ! ولم تلق نظرة حتى على كتبه التي تحوى أشعاره الخالدة .

وكان هو يقول : « لا بأس في ذلك ما دامت ترن في اذني ضحكاتك المرحة وما دمت لا تهجرينني » .

فتجيبه : « انا لن اهجرك ابدا ، لقد اشتريتني بمالك . . اليس كذلك ؟ لن انظر الى رجل آخر ، ومهما كانت معاملتك لي فلن اهجرك » .

ــ واذا انا هجرتك ؟

ــ ساقتل نفسي . . فلقد ارتبطنا مدى الحياة .

ولم يصدق احد شيئا من ذلك . كان كل اصدقائه ينتظرون نهاية لهذا الزواج . فلم تكن ماتيلدا غبية متلافة فحسب ، بل ان الشراسة كانت من اظهر طباعها ، فكانت ترميه بالاطباق هو وضيوفه احيانا . وكان يضربها كانها طفلة ، ولكن سرعان ما ينتهي كل شيء بينهما بالصلح فيقدم لها احدى هداياه .

وهكذا بدآ يحسان ــ بمرور الوقت ــ بضائقة مالية نظرا لاسرافها الشديد . فاصطحب هايني زوجه لترى عمه الموسر ، ولكنها لم تترك في نفسه منزلة حسنة فلم يهبهما شيئا . ومع ذلك كان هايني ما زال ينتظر ان يرث ذلك العم الذي ما ان ادركته المنية حتى اكتشف انه لم يترك سوى ستة عشر الف فرنك لا غير ، فخارت قواه واغمي عليه، ولما افاق كان يبكي اسفا وحزنا لاول مرة في حياته،اذ كان معنى ذلك هلاكه وبؤسه ، فلقد خاب امله واثر فيه ذلك ، وكانت صحته منهكة من فرط اغراقه في عمله . وتجمعت هذه المؤثرات فاذا به يفقد اتزانه وحيويته ، فلازم الفراش ولم يتمكن من مغادرته .

واشفق عليه الجميع في مرضه . . اصدقاؤه ، واهله ، وصديقته كاميل سيلدن التي كان يحبها حبا افلاطونيا ، والتي كانت تفهمه وتتذوق شعره وتقدره ، والتي كانت تقضي كل وقتها بجانب فراشه . . ولكنه كان مع هذا كله يطلب رؤية ماتيلدا في اصرار .

وكانت هي ما زالت محتفظة برونقها وشبابها وجمالها وضحكاتها ، ولم يكن صدى حبه العميق لديها سوى الشفقة فحسب . . الشفقة التي كانت تهبه اياها في غير مبالاة .

وكانت تمرضه في عدم اكتراث كأنما تشرف على تمريض شخص غريب عنها ، وحين تنتهي من واجباتها نحوه تسرع هي وخالتها مرتدية ابهى ثيابها التي اشتراها لها وتخرج لتبذر نقوده التي جمعها بالكد والجهد في المسارح

والمطاعم !!

واحتمل هايني آلامه التي لم تتمكن هي ابدا من فهمها أو تقديرها في شجاعة وصبر .

ولم تكن تعطف عليه أو ترق له ، بل مما زاد الطين بلة انها كانت دائما تكرر قولها : « لقد أشتريتني بمالك ، وانا ملك لك دائما » ثم تتعالى ضحكاتها مجلجلة .

وكان هو ما زال يحبها في عاطفة متأججة تكتسح كل شيء في طريقها ، ولكن عقله ــ مع ذلك ــ كان يراها على حقيقتها .. بشراستها وتفاهتها وخشونتها وغباوتها مما كان سببا في انصراف اكثر أصدقائه عنه لسوء معاملتها لهم . ولما نصحوها ان تكون اكثر رفقا به وهو رجل على شفا الموت .. ضحكت .. ولما اخبروها ان زوجها يتألم من صخب الببغاء وضجيجه اجابت « ولكني احب الطائر العزيز ، ولقد أهدانيه هو نفسه ! » .

ولكن الرجل المفلوج كان يغتصب ابتسامة ، فان اكبر ما يخشاه هو ان تهجره زوجه التي يهيم بها . ولما اشتد به المرض استأجرت له ممرضة لتعنى به واحجمت هي عن رؤيته اكثر الاوقات .

ووهبها كل ما يملك من نقود ، فاشترت رداء حريريا جميلا بالثمن الذي حصل عليه من بيع كتاب يشتمل على اجمل اشعاره . وكانت ضحكاتها تتعالى وهي تشاهد المهرجين في السيرك ، بينما كان الالم يفري جسد زوجها في فراشه وبجانبه كاميل سيلدن .. رفيقته الوحيدة .

كانت كاميل تخلص له وتحبه حبا عميقا ، كانت تمرضه وتقف بجانبه تغمره بأرق عواطفها ، وتقدر شعره تقديرا كبيرا . ولكنه مع هذا كله كان يطلب رؤية ماتيلدا .. فتضحك كاميل في حزن واسى وهي تقول : « هلا افيدك انا في شيء يا صديقي ؟ » .

فيهمس : « انا اعرف ما الذي ستقولينه .. حقيقة انها لا تساوي شيئا ، مستهتره غبية جاهلة شرسة جامدة بلا قلب .. نعم .. نعم .. اعرف كل ذلك .. ولكني أشتريتها منذ زمن بعيد ، وكل منا يخص الآخر ــ كما ترين ــ الى النهاية .. انها تثير حياتي وتبعث فيها الجمال » .

ولما حانت منيته كان يهمس بشعر من نظمه وهو يهذي ويقول :

فوق فراشي نبتت شجرة
تغرد فيها البلابل الصغيرة
منشدة اغنيات الحب .. والحب فقط ..
فتطرق سمعي حتى في احلامي ...

ثم همس الى الممرضة قائلا : انظري اذا كانت زوجتي هنا .. فالمنزل ساكن .

وبحثت عنها الممرضة فلم تجدها .

فقال هايني : هل الببغاء هنا ؟

ــ نعم .. انه في القفص .

ــ اذا فهي لم تهجرني بعد .

ولم تكن قد هجرته حقيقة ، بل كانت مخلصة له على طريقتها .

وقال وهو يرسل آخر انفاسه : «نحن نعيش في سلام .. انها الوحيده التي تعزيني وتستهويني » .

وكان الجميع يشعرون بالكراهية الدفينة نحوها ، حتى ان الممرضة لم ترض ان تخبرها عن الوقت الذي صعدت فيه روح زوجها الى باريها ، وكان ذلك في يوم من ايام فبراير البارده عام ١٨٥٦ .

وعاشت بعده ثلاثين عاما ، كانت هوايتها جمع الطيور والحيوانات المختلفة ، وكانت ما تزال تأكل في نهم كعادتها ، ومع ذلك كانت محتفظة بجمالها الذي اسرت به زوجها الشاعر الراحل .

ولم تتزوج ثانية بعد وفاته ، كما لم يهف قلبها لاحد غيره . واصيبت بسكتة قلبية في ذكرى وفاته عام ١٨٨٣ فماتت لساعتها ، ودفنت معه في قبره ، ولكنهم لم يحفروا سوى اسمه فقط على شاهد القبر .

وهكذا اجتمع الحبيبان بعد فراقهما الطويل ، جمعهما القبر اخيرا ، واذا بها في مماتها تشاركه شهرته كما فعلت ذلك في حياتها .

وكان من بين مخلفاتها مجموعات من شعره كانت سببا في خلود اسمه .. ولكنها لم تكن قد قرأتها ابدا !.

الاسكندرية — **حسن فتحي خليل**

شقراء

شقراء .. ضعي الكأس جانبا كفى ضياعا
عيناك الزرقاوان اغرورقتا بدمعة حلوة
وشفتاك الدافئتان تضطرب فيهما كلمات المجاعة
ضعي الكأس .. فالحياة ليست للضياع
العمر ايام حلوة وليال هانئة راقصة
اترعي مباهج الحياة من كأس الزمن الكبير
في يقظة ونشوة ، فالنشوة للمحظوظين
هذه الفتنة تنام بين خصلات شعرك المعربدة
انها تنام حالمة على كتفك البلوري
وحين تستيقظ تطل على برعمين حنونين للانوثة الصارخة
انهما ابيات شعر منثور لم ينشر بعد
شقراء ... ضعي الكأس جانبا كفى ضياعا
النغم الصاخب يهز كيانك هزا
ودخان اللفافات يكاد يخنق صوتك المنغم
عودي الى الطبيعة لحظة لتعودي زهرة ندية
فالجمال لا يعرف الحدود ولا التقاليد
والحسن يعبد في محراب الحقيقة
والانسان الخير هو الهدف الاخير

هايدلبرج — **علي حسن فدعق**

غوته

بقلم ستيفن سبندر

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

يوصف غوته احيانا بانه آخر انسان ظل محتفظا بسمات عبقرية النهضة (الاوروبية) . وعلى التحقيق يصح له الادعاء بالشمول والكونية . فهو شاعر بين الامراء ، وكيف لا وهذه الصفة تنطبق على الارستقراطي الذي حكم ولاية وايمر الصغيرة ، اذ هي مأثرة من مآثره . وفضلا عن كتابه (فاوست) ، فقد كان سياسيا اداريا وعالما دارسا . وكان – في معتقداته – انسانيا (Humanist) يناصر اغلب الاوقات العالم الوثني ضد العالم المسيحي ، مع اهتمام بالغ متهوس بالمسيح وبالايمان اللذين تجاوزا الكنائس الى الاديان الوثنية القديمة والشرقية الحديثة .

نحن ميالون لاعتبار اي من بلغ ريعان شبابه قبل الثورة الفرنسية ، اعتباره من عهد منفصل عن عهدنا هذا ، وقد كان غوته في الاربعين من عمره سنة ١٧٨٩ ، اي في اندلاع الثورة الفرنسية . ونصف حياته يقع على تخوم الفاصل الزمني الذي يحدد العهدين القديم والحديث . ومع ذلك فغوته يبدو كاتبا حديثا يعالج المشكلات الخاصة بصفته شاعرا في العصر الراهن . وبذلك يبز كثيرا فلاسفة الثورة الفرنسية الذين وضعوا كيان عصرنا الذي نحياه . انه يسحر الذين يقعون تحت تأثيره لنجاحه الكبير في محاولته لدمج الفكر والمعرفة المعاصرين في بوتقة واحدة ، وهذا ما لم يستطعه غيره منذ زمنه . واذا كنا نحسبه العبقرية الشاملة « الاخيرة » فذلك انه كان آخر انسان في وضع يستطيع فيه ان يحاول الدمج والتوحيد بين الفكر والمعرفة. اما بعده ، فان المعرفة والاختراع وحصيلتهما –الاختصاص– ازدادت زيادة سريعة بحيث اصبح من العسير نصب جسر على البرزخ الذي يفصل بين العلم والشعر ، ومع ذلك وبسبب من تأثير غوته ، ظل هذا الهدف هدف (الفكتوريين العظام) (١) وبدلا من ان نقول انه كان عبقري النهضة الاخير ، يصح لنا القول اذن : ان غوته كان الانسان العصري الاول والاخير والكامل : كان شاملا ، سالم الذهن والجسم ، جامعا بين ادوار الشاعر والسياسي والعالم . هذه الوظائف التي تبعثرت على اثره ، وانفصم عقدها لتشغل كل منها مكانها الخاص بها .

ومع ذلك ، ففكره المتعدد الجوانب بدت عليه بعض التحديدات في القرن الثامن عشر فضاق الحال بذهنه الشاعري الخصب حين واجه مناهج البحث التحليلي المختص المنعزل . ان دراسة الوثائق واستخلاص النتائج منها مهما تكن ، والامعان بطريقة مجردة في المجهول ، والتشكك فيما هو سري غامض ، كل هذه الامور كانت بالقياس اليه كفرا ، كما كانت كذلك لمعاصره وليم بليك الذي اختلف عنه كل الاختلاف .

« عرف » غوته الكثير من العلم بيد انه مقت اكثر مناهج العلم تقدمية . ومع انه لم يتعرف على بليك ، الا انه كان على وفاق معه في تحريم نيوتن . (يقول بهذا الصدد) : «اكتشفت الضياء في صفائه وحقيقته ، وجعلت من واجبي النضال دونه . اما الحزب المعارض ، فقد عمل ما في وسعه لاظلام الضياء ، لانهم يعتقدون بان الظل جزء منه » . وقد جاء ذلك في رسالة لغوته الى ايكرمان سنة ١٨٢٤ وبهذا (القول) لوح بنظريته في الالوان . وفي هذا ما فيه من شعور بان المنهج النيوتني في البحث المجرد ما هو بحد ذاته الا عمل من اعمال الشيطان . اي انه كان من واجب العلم البحث عن تعابير واستعارات في الطبيعة تبرهن على الوحدة المستكنة في كل جزء من اجزائها . توقع غوته من العلم كالدين سواء بسواء توكيد عقيدته الاساسية : « كل الاشياء تتشابك وتنسجم في كل كامل . »

موقف غوته من نيوتن يظهره بانه اقرب الى الشاعر الحديث في ازمته حين يواجه نتائج ومناهج الاختصاص العلمي، منه الى ليوناردو ذي الذهن الاحيائي (٢) الشامل، الذي كان يعتبر العلم امتدادا الى عالم الاشياء وهو في هذا يماثل الاكتشافات والاختراعات التي تمت على يده في فن الرسم . اما اختراعاته (٣) فكانت اميل الى محاولات السرياليين في عصرنا هذا ، للسيطرة على مناطق جديدة من مناطق التجربة لتنضم الى الخيال . وفي ذلك كان بعيدا عن البحوث العلمية الحديثة .

صحيح ان مثابرة غوته وخياله قادتاه الى اكتشاف علمي مهم على الاقل ، بشر بنظرية دارون في التطور . لكن هذه الحال تؤكد المعضلة الراهنة التي تواجهنا في حياته ، اعني ان الشعر بحاجة الى العلم ، كاحتياج العلم الى الشعر . ومع ذلك يكاد يكون مستحيلا رصد ذهن حديث يستطيع الجمع بين ايمان شاعري كامل وتشكك علمي شامل .

وفي عشية عصر الاختصاص ، راى غوته اهمية التركيب والتوحيد مستبعدا الاختصاص . وما كتابته وحياته الا انعكاس للانسجام الذي انجزه في تصرفه ومسؤوليته وعمله ووجوده . وقد عبر عن هذه الحقيقة حين اضفى على شعره سمة السيرة الشخصية ، وهذا ما فعله بقصته (الانساب المختارة) عندما قال : ان كل سطر فيها حصيلة تجربة من تجاربه .

انا لا اعني بالاختصاص « العلم » المجرد ، بل اعني الاندفاع من مركز جميع فعاليات الذهن الحديث ، للتوكيد على تلك الخصائص التي تميزها عن غيرها من الفعاليات . كما يكاد يبدو محتما ان تتناثر الفنون والضبط العقلي في

عصر يسيطر فيه على حياة البشر النضال من اجل السلطة في السياسة ، وجبروت الصحافة والاختراعات العلمية . ومثل (الحياة قصيرة والفن طويل العمر) ، مثل معاد لدى غوته . ولم يعرف احد خيرا منه ان ظروف الزمان كانت تتطور بطرائق غير ملائمة لتطور الفن .

وكل شيء في حياته بعد بلوغه الخامسة والعشرين ، يبدو مهما بالقياس الى تحدي الظروف . والطريقة التي واجه بها هذا الامر ، كانت هي نفسها تحديا للكتاب اللاحقين الذين واجهوا الوضعية نفسها حديثا . وتوماس مان وحده هو الكاتب العظيم الحديث الذي شعر بتحدي هذه القدوة الحسنة . وكتاباته عن غوته تستدعي الى الذهن مناجات هملت الى شبح والده .

وعجز الكتاب اللاحقين عن اقتفاء اثر غوته في ربط الحياة الشاعرية بالعمل والانجاز الذاتي ، يوكد اهدافه توكيدا . والاختيار المقصود ، عن سبق اصرار ، يشمل حتى ايمانه بضرورة السير على منوال كل ما هو كامن في الوعي ، (فتراه) يطيع بادراك غرائزه في اوقات تكاد تكون عمياء ، متتبعا مسالك خارجية عن نهج تطوره ، معترفا بالخطأ ، مظهرا — في حصيلة عمله — ان ما بدا خاطئا غامضا ، خارجا عن الصدد ، يمكن ان ينخرط فيما توصل اليه من حق جلي ، وهذا ما كان يتم بوضوح في الخاتمة . يتفق غوته مع بليك في الذهاب الى : « ان ما ندعوه شرا ليس الا الجانب الاخر من الخير . » وكان يمكن لبليك ان يرى في مفستوفيليس (٤) ما رآه ووصفه ملتن — ملتن هذا الذي كان على حسب كلمات بليك « من حزب الشيطان بغير علم منه — » وهذا قول كان يمكن ان شرح صدر غوته .

اما التغيير الذي طرا على حياة غوته بعد ان اصبح وزيرا للدولة ، وكلاسيكيا موضوعيا ، فقد يصح اعتماده لنسج قصة مألوفة عن رجل عبقري ، بعد فورة شبابه وقبوله للوظائف العامة ، وتسلمه لمنصبه الرسمي ، لولا احترامه لما دعاه . د.هـ. لورنس بـ (آلهة الظلام) تلك الالهة التي جلبها غوته معه الى حياة وايمر ، الحياة التي بدا عليها الاحترام الظاهر والسخرية العميقة . ان التبدل هذا واضح بين القسمين الاول والثاني من فاوست . فالقسم الاول يعنى بالعالم الذاتي الذي يتجلى في اكتشاف فاوست لنفسه عن طريق السحر . اما القسم الثاني فيعالج العالم الموضوعي الذي فيه يكون للماضي والدين والفن والعلم الاولوية في تغيير الطبيعة البشرية بخلاف الهواجس الذاتية .

وما السحر الا اداة فاوست الذاتي في البحث عن نفسه . على حين ان الرعب والظلام واسرار العالم الكلاسيكي وقوى ما فوق الطبيعة و « امهات » القسم الثاني من الدراما — في غرابتهن — هذه الامور هي التي تكون صورة للحياة اعظم مما يفعل الافراد ، وهذا سر يجعل اعظم هؤلاء ادوات للخدمة الرفيعة .

شخصية مفستوفيليس شخصية من القرون الوسطى يتضاءل شأنها بسبب العظمة المرعبة التي يتسم بها سكان فالبرغشناخت (٥) . وكما هي الحال في القسم الثاني من المسرحية التي استغرقت حياته العاملة باكملها ، احاط غوته حياته المتأخرة بقوى موضوعية مقصيا عن نفسه الشياطين والسحرة واغراءات المرحلة الاولى من حياته . فاصبح بعد الانعزال الذاتي والرومانسية والذاتية علائم مرض حديث ينبغي للشعراء مناجزتها . ومن هنا كان استياؤه من الرومانسيين . وفي هذا الشأن يحدث ايكرمان قائلا « كل العصور التي هي في انحطاط وانحلال عصور ذاتية . ومن جهة اخرى فجميع العصور التقدمية لا بد ان تكون موضوعية . ان عهدنا عهد رجعة ، ولذا فهو عهد ذاتي . لا نرى هذا في الشعر حسب ، بل في الرسم فضلا عن اشياء اخر . وعلى الضد من ذلك ، فكل جهد سليم ينبغي ان يوجه من الداخل الى العالم الخارجي . »

ولا شيء ابعد عن راي غوته في الشعر من تعريف كيتس لـ « شخصية الشاعرية » بصفتها « لا ذات » و « لاهوية » لها وباعتبار الشاعر « ابعد مخلوقات الله عن الشاعرية » كما ان غوته لا يتفق حتى مع الاستثناء الذي افترضه كيتس لتعميمه هو نفسه ، وهذا الاستثناء يظهر في « السمو الوردزورثي (٦) او الاناني ، الذي يقوم بذاته ويصمد بنفسه . » اما انانية غوته فكانت دفاعا عن الغيرية ، وهي اقصى ما تكون بعدا عن الانانية .

واذن فراي غوته في الشعر هو على طرفي نقيض مع راي المدرسة الرومانسية . بيد ان هذه النقائض قد تتلاقى في بعض النقاط . ومن تلك (النقاط) راي كيتس في ان الشاعر يلج في كل شيء اذا ما اباد ذاتيته ، فهذا يتفق مع راي غوته « بان كل جهد سليم ... يوجهه من الداخل الى العالم الخارجي . » لكن كيتس يوكد على الشخصية التلقائية ، التي تستطيع من خلال حساسيتها ان تدخل في طبيعة الشمس والقمر ، اما غوته فيوكد على الشخصية الايجابية التي تدخل الى العالم مواجهة اياه بقيم موضوعية اخلاقية وشعرية . ومن هنا يعمل كيتس على جعل الشيء الموضوعي ذاتيا ، ويعمل غوته على جعل الشيء الذاتي موضوعيا .

كان موقف غوته ولا يزال موقفا انعزاليا في تطور الشعر الحديث . فمنذ زمنه والى زمننا هذا تتلاطم امواج الطبيعة الرومانسية على صخرة هذا الرجل ، ومشهد هذا التلاطم مشهد مؤلم ، اذ يرى غوته تحت ضوء باهت . وقد استغل كثيرا رفضه للاهتمام بهولدرلن وكذلك بروده في رسالته الشهيرة الى كلايست . ومع ذلك فليس من الضرورة حتما الدفاع عن غوته بصفته شاعرا ، حيال نقده باعتباره انسانا . لانه لم يستطع ان يشمل بعطفه شعراء آخرين ، لمواقف كان يعارضها بنفسه بغير شفقة ولا رحمة . ذلك بان حياته هي الثمن الذي دفعه لشعره ، وتلك الحياة ذاتها كانت اعظم

اعماله في الختام . الم يصف عمله الادبي بعده سيرة ذاتية طويلة ؟ اما (فرتر) والقصائد المبكرة فكانت تعبيرا عن الحياة الرومانسية الذاتية ، غير ان حياته بعد الاربعين كانت اكثر فاكثر موضوع شعره . ففي البدء كتبت حياته شعره ، وبعد ذلك كتبت عظمته حياته .

ليس يكفي ان اتحدث عن غوته لمجرد كونه شاعرا . فالذي نعني بكلمة (غوته) لا يتضمن شعره ونثره حسب بل قدوته الحسنة وما يعرف بحكمته . ان عظمته تكمن في انجازه بجعل نفسه موضوعيا ، واليوم حين يقول المرء : « غوته » فهو يعني حصيلة أشياء مهمة عظيمة — منها الشعر او النثر ، ومنها ما يتصل بتصرفه في الحياة كاعماله الهيدونية (٧) وتضحياته في الوقت نفسه . وهذه الامور كلها تكون صورة تشبه ملحمة عظيمة لم يدبجها انسان بكلمات حسب بل باعمال منبثقة من دمه ولحمه .

ذلك انه الح في جعل تطوره غاية طبيعته الثرة ذات الوجوه المتعددة . وهذا ما نجد صعوبة في قبوله منه ، بسبب اعتيادنا على ربط التضحية بالزهد . فانجاز التضحية من خلال تحقيق الذات بالاصرار على السعادة بغير التفات الى نكران الذات والشقاء ، والمحافظة على الوجود الذاتي بغير هدر له وتنازل عنه امور غريبة كل الغرابة عن مفهومنا للاخلاق البيوريتانية المتنصرة .

قد يسوؤنا ان نعلم بالمقت الذي كان يكنه غوته لمرأى الجثث او زيارة الموتى ، او قيامه بما في استطاعته من قدرة لتجاهل العذاب الذي كانت تكابده زوجته على فراش المرض ، او قطعه لصلاته باحبائه حين تكون تلك الصلات مهددة لاستقلاله . ومع ذلك لا بد من قبول هذا الثمن الذي يجب ان ندفعه من اجل «غوته» . ولكي نفهم عظمته علينا ان نرى انه هو نفسه دفع الثمن ، على ادراك منه لما كان يفعل .

يقرن اسمه عادة الى العبقريات الشاعرية كشكسبير ودانتي — وهو تتمة لهذين الاخيرين ، واسمه على الشفاه الكثيرة اللاهجة به . ومع ذلك فما اقل الوشائج التي تربط بين الشاعرين الآخرين وبينه ! يقيس غوته هذا البرزخ حين يحدث ايكرمان عن شكسبير قائلا : « ذلك النتاج البريء الهادىء السائر في نومه ، الذي بواسطته يمكن ازدهار كل شيء عظيم ، لم يعد محتمل الوجود . ان مواهبنا موضوعة امام الجمهور . والنقد اليومي في خمسين مكان مختلف بما يعقبه من شائعات يحول دون ظهور انتاج سليم . ومن لا يسمو عن هذا كله . ويعتكف على نفسه بالقوة يضيع . ان ضربا من الثقافة النصفية ، يجد طريقه الى الجماهير ، من خلال لهجة المجلات السلبية الرديئة ، في نقدها او في تقديراتها « الجمالية » وهي للمواهب الخلاقة ضباب مؤذ ، وسم منحدر من الاوراق الخضر المزركشة الى اعمق العروق والانساغ ، وهي التي تحطم شجرة الابداع . »

ان الظروف الحديثة تجعل الشاعر يعي ذاته ، والرد الوحيد على هذه الظروف يتمثل في القبول الحازم اليقظ لحالة الشاعر . اذ لم تعد البراءة محتملة واصبح الوعي هو كل شيء .

ان حياة غوته نفسها تصور تبدل موقفه من ابداع بريء الى وعي متطرف وضرب من العزلة الارادية التي هي ليست « هروبا » بل وحدة اقتضى أن يكون مكانها في مركز الاشياء الخارجية . لم يبز اي شاب الشاب غوته في حساسيته وتلقائية مشاعره وفورة مزاجه « فقد كان كله حيوية وقوة من اخمص قدمه الى سمت راسه ، فضلا عن قلبه المفعم بالعاطفة والروح النارية ، ذلك القلب الذي يحلق باجنحة النسر » كما وصفه هاينه (اما هيردر فقد وجده « خفيفا بعض الشيء كالعصفور . ») وقد أثر في معاصريه كانه روح العبقرية المجسدة ، ومركز «العاصفة والاندفاع». ان كتاباته في ذلك الوقت ، واغانيه الاصيلة المباشرة المعجبة وذهب (اورفاوست) الابريز والنار الشكسبيرية في (غوتز فون برليخنكن) كل هذه الامور لا تزال تنقل الينا باكورة غوته في فورتها وانتفاضتها — حتى ولو راينا شيئا غريبا في ان تكون (فرتر) مدعاة (مودة) لانتحار الشباب .

جرب غوته — في شبابه — المرض الرومانسي ، وتعلم من ذلك انه داء كاد يدفع به الى حافة الانتحار والقنوط وحتى الجنون . ان الرجل الذي نظر الى ماضيه ، في اواخر حياته قال بانه لم يعرف اسبوعا قط بغير ان يكابد فيه عذابا ، وبالرغم من صحته الجيدة كان عرضة لنوبات مرض — ولذا عاش معظم ايامه قريبا جدا من الانحلال تحت ستار من العزيمة المضاءة . اما القوة التي سيطرت عليه ، اما التصميم الذي صهر حياته ، فقد كانتا متمثلتين في القنوط .

ان اهم الحوادث في حياة غوته هي تسنمه منصب الوزارة على يد كارل اوغست « أمير » وايمر سنة ١٧١٥ وسفرته الاولى الى ايطاليا بعدئذ باحدى عشرة سنة ، وعلاقته الغرامية بشارلوت فون شتاين التي يرجع عهدها الى السنين الاثنتي عشرة الاولى في وايمر ، وصداقته مع شللر التي بدات سنة ١٧٩٤ وهي التي انقذته من العزلة الشعرية حتى وفاة شللر ، اما اعظم حدث خارجي اثر في افكاره فهو الثورة الفرنسية بغير شك ولا ريب .

وما ان تم توظيفه في وايمر حتى غير الشاب الرومانسي لون جلده ، فلم يعد شخصا تدفعه رياح (العاصفة . . .) بل اصبح موجه مصيره الذي وجه بدوره شعره .

وبهذا التبدل اخذ يميل بحبه نحو المثل الكلاسيكي الاعلى . وتوضيحا لسفره غير المعلن عنه الى روما كتب الى شارلوت فون شتاين بانه لم يستطع — سنين عديدة — ان ينظر الى اي مؤلف لاتيني او صورة من ايطاليا بغير تألم وعذاب . ثم ان السفرة الايطالية اعانته على التغلب على الازمة الروحية التي تسبب توظيفه في بلاط وايمر في

اثارتها . لقد تقبل الخدمة العامة والمسؤولية في العالم من اجل ان يوجه روحه ، لكن مهام رجل البلاط الاداري لم تسمح له بوضع اسس غير رومانسية ، هذه الاسس التي لا يستطيع اكتشافها الا بالذهاب الى مركز العالم الكلاسيكي.

اكتشف غوته في سفرته روما فنكلمان ، روما الاغريق . وقد تأثر بروفائيل وبالاديو والسماء الايطالية والمناظر الطبيعية . و (مراثي روما) التي وضعها تربط بصورة معجبة بين اكتشاف العالم العتيق واستسلامه الى مثل هذا العالم الوثني وبين النقد الاجتماعي العنيف .

انه استقر على ما صمم عليه ليس بسبب من ازمة موقفه ومهامه في وايمر التي ساعدته السفرة الايطالية على حلها ، بل ايضا بسبب صلته بالمراة التي كانت مركز حياته العاطفية والروحية مدى اثنتي عشرة سنة . كانت شارلوت فون شتاين تكبر غوته بسبع سنين ، وهي زوجة موظف في البلاط ، وام سبعة اطفال . هذه المراة كانت موضع اهتمام غوته عاطفيا خلال سني رجولته الناضجة .

ليس المهم انها « استسلمت » له ، بل المهم ان هزيمة غوته الى روما كانت نتيجة لما تبقى من صلة رفيعة اكتنفتها الخيبة والاخفاق . وفي روما نبذ الطراز العالي من الافكار وشرع يحيا حياة جديدة فيها للمسرات الحسية قيمة لا غبار عليها من استحياء واحتشام . وهناك كتب قصائد كان فيها برايبوس مهما اهمية ايروس (٨) . وثمة بيت في (مراثي روما) يصف فيها اضطجاعه بين احضان خليلته الايطالية ونقره بيده الحرة على ظهرها انغام القافية السداسية . لقد انعش جذور شعره بفراره من تزهد وايمر الى خلاعة روما .

لم تستطع شارلوت فون شتاين ان تغفر لغوته سقطته تلك . والواقع ، انه حين عاد الى وايمر وجد برودا في استقبال معظم اصدقائه . ووفاء منه الى الرغبة الجنسية الجامحة التي صبها في حياته، اتخذ له خليلة ، فتاة صغيرة في بيته ، تدعى كرستيانا فلبيوس ، وقد اصبحت بعدئذ زوجة له .

ان غوته مشهور بـ (حكمته) ولحد ما تطغى سمعة (حكيم وايمر) على سمعة الشاعر . وحين ذكر ت . س اليوت ملاحظته المشهورة : كان ينبغي لغوته ان يكرس نفسه لوضع الامثال على منوال لاروشفوكو ، انما كان يعبر عن عدد لا باس به من القراء (٩) فيما توصلوا اليه من نتائج ضمنا .

ولسمعة الحكمة شيء من البرود يصيب الشاعر بتأثيره. ومع ذلك فحكمة غوته اصيلة وليست من نوافل راصد محظوظ ، يستطيع ان يكون حكيما متى ما شاء . انها اقرب ما تكون الى الصوفي : ذلك الانسان الذي كرس حياته باسرها الى ضغط المبادىء الحية التي تباعد بينه وبين العالم بضرب معين من العزلة . ومن مكانه في مركز العالم استطاع غوته ان يحظى بهذه العزلة التي انبعثت من اخضاع تصرفاته كلها ــ حتى مسراته وعواطفه ، اخضاعها الى تاثيرها في شخصيته وعمله . وبسبب ما صنع بنفسه وما ابدعه ، حق له الادعاء بالتسامي على النضال اثناء الحروب النابليونية ، والامتناع عن تأييد التحمس الوطني الالماني . انه راى في نابليون اداة للقدر ينفذ هدفا لا يختلف كثيرا عن هدفه . وقد دفع الثورة الفرنسية باعتبارها نهاية الثقافة الاوروبية التي كان هو جزءا لا يتجزأ منها .

ومع عمق امثال غوته وحكمه ، ينبغي التفريق بين تلك التي يتجلى فيها الذكاء ، وبين تلك التي تكتنفها نغمة ، طريقة « ذهبية » في رؤية الاشياء ، وهي التي تعلو على منازعات العالم . وهذه الحكمة الموسيقية المرئية وغير المرئية تؤثر في موسيقى شعره وفي نثره ... انها تشد مناقشاته الجدلية بعضها ببعض في مناظراته ، تشدها بسبب اعظم من الاسباب التي قد يتحدث عنها ، في الفن والتاريخ والنضال بين الخير والشر، مع استعلاء على الاشياء الفانية. وهي التي تمهد لما يدعوه غالبا بفكرة الادب العالمي. وليس هذا الادب بالقياس الى غوته برج بابل او مؤتمرا للاونسكو ، انما هو يعني اجتماع الاذهان وتأييدها لاتفاقات مشتركة في (حقل) الادب ، في تسام على المنازعات العالمية . ولعل هذه الفكرة تماثل ما دعاه اندريه مالرو (الفكر الخيالي) لكل الازمان والثقافات حين تلتقي (روافده) في ذهن حديث .

وهذه النغمة التي تكتنف بعض اجزاء (ولهلم مايستر) وجزءا من الاغاني والقصة الاسطورية (نوفيل) هي التي تسبغ عليها طابعا يرفعها من تخوم الادب الى موسيقى موزارت ومناظر جيورجيوني الرعوية . هنا حكمة ليست من ضرب الامثال ، انها غير منفصلة عن الرؤيا الشعرية ، وهي التي تشع في احسن ما كتب غوته اشعاعا ذهبيا معجبا .

ثم ان هذه الحكمة تعود بنا الى حياة غوته في انتظامها وحتميتها . فكان اللقاء مع شللر ذا بداية باردة بعض الشيء، لان كلا منهما شعر بان الشاعر الآخر « خصمه » و (مع ذلك استمرت الصداقة بينهما) اذ راى كل منهما في صاحبه تكملة له في الفكر والحياة ــ وهذا لم يكن مجرد

---

(١) بالنسبة الى عهد الملكة فكتوريا (١٨٣٧-١٩٠١) المترجم. (٢) بالنسبة الى نهضة الاحياء الاوروبي المترجم . (٣) المقصود بها اختراعات غوته ، المترجم . (٤) هو الشيطان الذي يلعب دور البطولة في ماساة (فاوست) لغوته ــ المترجم . (٥) لم اعثر في معجم (اكسفورد الشامل) على معنى لهذه الكلمة ، لكني اظنها تعني الجحيم بالقرينة ، المترجم . (٦) بالنسبة الى الشاعر الانكليزي الرومانسي الكبير وردزورث، المترجم . (٧) هي فلسفة المسرات الحسية والتلذذ العاطفي ، المترجم . (٨) برايبوس : اله التناسل ، ايروس : الحب ، واله الحب ، معجم اوكسفورد الشامل. (٩) قراء هذا البلد ، يعني الكاتب انكلترا طبعا ، المترجم . (١٠) الحكم الالهي الصوفي ، المترجم .

مصادفة سعيدة بل اسوة حسنة من الانسجام . انه كان جزءا من عمل عظيم استل الفضائل من الظروف .

كانت نظرة غوته الى الحياة نظرة ارستقراطية في اساسها . فاعتقد بان احسن من يحكم هو الملك المستنير . ومع ذلك آمن بان الملوك ينبغي لهم خدمة الشعب ، ولقد انتقد اولئك الذين لم يفعلوا ذلك . وقد خدم (غوته) كارل اوغست دوق ساكس — وايمر — آيزناخ — وكان في خدمته تلك صريحا في نقده ونصحه . كما راى في الثورة الفرنسية نهاية للطبقة الارستقراطية .

ومع ذلك عد وجوده مستمدا من الشعب وتشكي لايكرمان بانه لا شيء ابلغ في الاساءة الى فهمه من تسميته الساخرة « صديق النظام القائم » وقد احتج على ذلك وقال : انه ولو يكره الثورات لكنه لا يحسبها اخطاء الشعوب بل اخطاء الحكومات .

لعل اعداء غوته السياسيين ، بمعرفتهم لمقته للاحرار (اللبراليين) ومساندته للرقابة على الصحف لا يكتفون بهذه التفسيرات الذاتية . . . اما فلسفة الشاعر السياسية فكانت تعبيرا عن حاجته للتقاليد في جذورها العميقة الضرورية لعمله من جهة ، ومن جهة اخرى فهي تكمن في ولائه لمسؤوليته باعتباره عضوا في حكومة الامارة . ان غوته — في مستوى عميق من فاوست — مفكر سياسي ملهم ، وضع ملاحظات عن النضال في الحياة ، اقتبسها وناقشها الماركسيون مؤخرا ، وهؤلاء ، لو كانوا في عهده لعدوا من الد اعدائه . والديالكتيك — في فاوست — اقوى من الشعور بالخير والشر : ذلك بان العمل ينبثق من الكفاح بين القوى التاريخية المتناقضة . يقول كارل فيتور بهذا الشأن في كتابه (الشاعر غوته) : « يعرف غوته ، ان الانسان — حين يعمل — يكون — في اساسه — بغير ضمير . فكم من الاعمال التي يعدها التاريخ عظيمة تستطيع الوقوف على قدميها امام حكم الاخلاق ؟ وعلى الذي يريد الا يجترح خطيئة الا يعمل . والانسان التاملي وحده هو الذي يستطيع الحفاظ على نقاوة روحه . هذا هو التناقض الذي لا مفر منه المفروض على الوجود الانساني ، وهو افرض ما يكون على الانسان العملي في الوقت الراهن . ذلك انه حين يصب قوته في خططه واعماله ، ينسحب ابعد فابعد من محيطه الذي كان فيه . وما يعد هنا انجازا ونجاحا يعد امام محكمة الاخلاق خيانة واثما . وهذه هي مأساة فاوست ايضا . »

وفي عصر عاد فيه الشعراء الى المعتقدات المسيحية لتكون ركيزة لايمانهم ورمزا ينسجون على منواله في اشعارهم ، واذا ما عجزوا عن ذلك وجدوا الضرورة تقتضيهم كما هي الحال مع ييتس ، ان يبنوا نظما ميتافيزية خاصة بهم — وفي مثل هذا العصر يبدو شعر غوته (ضعيفا) اذ هو يعاني المعايب الروحية التي طالما استهجنها في (اللبرالية) في اخلاقها وغيبياتها . انه في عوز الى المعتقد الديني ، ومع ذلك كان يستغيث بالله ، اما بالقياس الى الطبيعة فكان من دعاة وحدة الوجود ، ومن عباد الجمال ومحبي اليونان . وكأن في الامور العامة سليم الحس والادراك ، وكل المحاولات لبناء عقيدة استنادا الى آراء غوته لا بد لها ان تنتهي الى نوع من الحركة الدينية العالمية تشبه اليثوصوفية (١٠) .

لا جدال ان فاوست عمل عظيم ، ولكن الى م تستند ادعاءات شعر غوته الغنائي ؟

لهذا السؤال عدة اجوبة ، واحدها ان هذه (الاجوبة) تستفيد من الحظ السعيد ، فهنا شاعر اوتي قدرا عظيما من القوة والذكاء والسيطرة على اللغة الالمانية التي كانت فريدة بين اللغات الاوروبية في القرن الثامن عشر باحتفاظها بمناطق عظيمة لم يكتشفها الشعراء بعد . ومن هنا الطرافة والطراوة والحماسة التي نجدها في لغة غوته، وهي خواص الادب في الاقطار الاوروبية الاخرى ، قبل ذلك العهد باربعمئة سنة .

ثم ان لغوته حماسة سامية وسطوة (في الاداء) وسهولة في التعبير . والوحيد من معاصريه ، الذي يقارن به هو بايرون في حيوية ادائه وقوته ، في احسن ما كتبه وهو (دون جوان) . اما غوته ، في خيره نتاجه ، فهو اعظم من بايرون ، باسلوبه مضمونا وشكلا . وكان ذهنه بالطبع ، اكثر اثارة للاهتمام واحسن اطلاعا، واكثر ثقافة من بايرون، لانه اوتي من الوقت ما استطاع فيه ان ينضج تمام النضج.

وقد سبق غوته بعض شعراء القرن العشرين (كعزرا باوند) مثلا ، في مهارة التقنية ، بحيث استطاع جعل الشعر الحر والكتابة الخيالية اصداء لاشكال وموضوعات كلاسيكية. وهو اكثر نجاحا في تحليقه في اجواء الروح الكلاسيكية ، بقصيدتيه (بروميثيوس) و (غزرنزن دير مينشهايت) من الشعراء الكلاسيكيين المعروفين .

ثم ان اتفاقات اخرى اثارت غوته ، فكان نتاج هذه الاثارة مؤثرات لا مثيل لها لعبت دورها في لغته نفسها . ومن تلك (المؤثرات) (الديوان الغربي الشرقي) المعجب لا باعتباره نتفا مجموعة كما فعل فيتزاجيرالد بـ (عمر الخيام) فهو (يختلف عن ذلك كل الاختلاف) . انه فرار الخيال الى الروح الثقافية الماضية التي تتنشق مآثر العالم الشرقي المكتشف ، ومع ذلك فقوة غوته الآيلة الى الشيخوخة ومشاعره وروحه العصرية ، تجعله ينقل الى الماضي دما جديدا يجلبه اين ما يشاء الى الحياة العصرية .

يستطيع المرء ان يستمر في الاضافة والاستزادة من ادعاءات غوته في العظمة (فهو غالبا) تلقائي طريف كروبرت برنز ، وقصائده الموسمية تضفي لمسات حية على العمل الادبي الضخم الذي كان اعترافا نابضا بالحيوية في تعبيره عن سيرة حياته .

بغداد — يوسف عبد المسيح ثروة

— بابا ، خذني الى النافورة

ذهنه مشغول بفكرة استرجاع نقوده المسلوبة على المائدة الخضراء .

— بابا انا لم يسبق لي رؤية نافورة .

يخرج مسرعاويصفق الباب بشدة.

تتسمر الصغيرة في مكانها وتلتمع في زرقة عينيها اوائل الدموع ثم يمشي الحزن صاعدا قلب امها المستاءة لتصرف زوجها .

— لا تبك يا حبيبتي ، انا اخذك .

يتنفس الفرح في قلبها وتهرع الى امها تقبلها .

— اجلبي المشط لامشط شعرك .

— انذهب بالسيارة .

— لا نتمشى افضل

— ماما .. الم تشاهدي نافورة انت ايضا ؟

— ....

— ماذا تشبه النافورة ؟

— تشبه الدوش

— الا يسقط الماء علينا ؟

— لا ابدا .

تحاول تكوين فكرة واضحة عن الدوش الكبير في ذهنها الصغير

تتحرك يد الام تظفر الذهب الناعم وتتيه في بحار حلم للمستقبل .

الا هي احفظها .. واجعل السعد رفيقها .. آه ستغدو موظفةويخطبها مهندس يضمني معها في سيارة انيقة ويأخذني لزيارة الحسين .

— ابو جواد ، الا تأخذ ابنك الى الطبيب .

— آخذه غدا .

— لكن الطبيب قال ان عليكم ان تأتوا به مساء الخميس .

— غدا آخذه ، الليلة الجمعة ولا يصح اضاعة الفرصة .

ها هو يعبر الجسر يسوق سيارته الجديدة .. عيناه ترقبان الناس على الارصفة .. يسير الآن بطيئا ليصطاد راكبا .

طاط طاط .. طاط طاط ..

— تكسي تكسي

— نعم

— عند سينما هوليود

— هذه التي قرب النافورة ؟

— نعم هي

— ٣٠٠ فلس

— لا كثير

— لم اطلب كثيرا

يبتعد الراكب

— كم تعطي ؟

— ربع دينار

— تفضل اصعد

ها ... الآن يأتي دور السرعة والاحلام النهارية المتعبة النتائج . . الركاب كثيرون والرزق على الله . . عندما اسدد كل الاقساط اشتري سيارة اخرى اضع فيها سائقا .. يا الله سنذوق عندها طعم الراحة بالانفلات من بيتنا العتيق .

الصغيرة اللحظة مدهوشة برؤية

مذبح الاحلام

بقلم عزي الوهاب

المياه الحليبية تصعد وتنزل مثل (دولاب الهوة)

تهز يد امها كل حين .. تنبهها الى سحر الدوش الكبير .

يبدو المنظر للام شبه عادي وتفكر بالعودة لاعداد طعام العشاء .

— الا نرجع الى البيت .

— طيب .

وافقت الصغيرة ولكن اترجعان حقا .

الوان البروجكتورات الكهربائية

تحاصر الماء الحليبي .. تجبره على الخضوع لسلطانها فتنزع النافورة ثوب الباليه الابيض وترتدي ملابس المهرجين .

اليس هذا سببا كافيا لمكوث الصغيرة فترة اخرى .

يقترب السائق الآن من ساحة النافورة عيناه مشدودتان الى الشلال الملون وخلايا عقله مشغولة بدورة الماء البديعة .

السيارة ما زالت مخضبة بدم الضحية التي ذبحها في (السيد محمد) كفان أحمران على زجاجتها الامامية .. هي في حرز امين اذن ولا داعي لتخفيض السرعة والاقدار بيد الله .

العائلة الصغيرة سعيدة بالتطلع الى النافورة .

الام تتابع المظهر الملون مستعيدة ذكريات الصبا .

الصغيرة الذهبية الشعر مسلوبة الارادة ترجع الى الخلف لترى النافورة من بعيد يتبعها عقلها الصغير دون ان ييسر لها فرصة التفكير بانها في شارع عام .

السيارة الجديدة تدور في الساحة .. السائق يهتم بالنافورة ولا يفكر باحتمال وجود طفلة ذهبية الشعر يعجبها رؤية النافورة من بعيد ولاول مرة .

تتركها امها لتغرق في ذكريات الصبا ، يهملها ابوها ليثار ممن هزموه في القمار .

القدر اللعين يمتطي ظهر غيمة سوداء يلهو بنا .. دما تحركها اصابعه العجيبة

يشجع الصغيرة بالتوغل في قلب الشارع

يغرق الام بسحر الاحلام

يغري السائق بزيادة السرعة

يحفز الاطارات لشرب دم دافيء..

ثم ...

•

آه .. ثم تأتي الخاتمة في لقاء الاحلام

دم الصغيرة الاحمر باقة اكف مشوشة على الاطارات الجديدة .

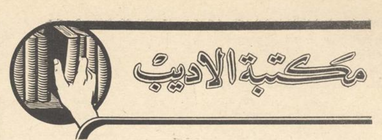
آه يا نحن ...

سريعا نمضي ضحايا لعبة القدر

اما النافورة المدللة فهي باقية في مكانها بظل الغيمة السوداء تدفع الماء أبيض ناصعا لتحيله الانوار رذاذا ملونا يعبر عن سرورها بنجاح اللعبة ولكي تبرهن على انها لم تتأثر بما حدث

لم تسمح لاي لون بالتغلب على باقي الالوان .

كربلاء — عزي الوهاب



شجرة العذراء : يصورها أدب النخيل

تاليف توفيق الفكيكي المحامي ـ ٢٤٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة الارشاد ببغداد

هذا كتاب يسر المكتبة العربية ان تستقبله وان تغنى به ، فانه من الكتب المتخصصة في موضوع واحد ، تلمه من اطرافه وتجمع ما قيل فيه وما كتب عنه لغة وتاريخا وادبا وشعرا وصفة وخاصية . فعندنا في التراث العربي كتب ورسائل في الخيل ، والقيان ، والابل ، والسيوف مثلا . وقد كان عندنا كتب ورسائل في النخيل اضاع الزمان اكثرها ، ككتاب ابي زيد الانصاري البصري المتوفي سنة ٢١٥ في التمر ، وكتاب ابن الاعرابي في صفة النخل ، وكتاب ابي نصر الباهلي المتوفي سنة ٢٣١ في الزرع والنخل ، وكتاب أبي حاتم السجستاني المتوفي سنة ٢٥٥ في « النخل » ، وكتاب المفضل الضبي في « الزرع والنبات والنخل وانواع الشجر » .

وقد بقي من الكتب والرسائل في النخيل بضعة سلمت من عاديات الزمان ، ككتاب الاصمعي المتوفي سنة ٢١٦ في « النخل والكرم » ، وقد نشره الاب لويس شيخو اليسوعي بمعاونة المستشرق هفنر في المجموعة التي اسمياها (البلغة في شذور اللغة) وكتاب السجستاني الذي نشر في صقلية سنة ١٨٧٣ م بعناية مستشرق ايطالي مع التعليق عليه ، وكتاب ابن سيده في النخل ، وهو قطعة من معجمه الموضوعي العظيم : « المخصص » .

فاذا جاءنا اليوم الاستاذ الباحث الدءوب توفيق الفكيكي العراقي ليقدم لنا بحثا متكاملا في ادب النخيل ، فانه بذلك يصل ما انقطع من كتابة الرسائل الخاصة ، ويبلغ بنا في مأثورات ادب النخلة الى ما قيل فيها حتى اليوم ما بين منظوم ومنثور .

والحق ان القارىء العربي اليوم قد تعجله الحياة او تشغله عن الرجوع الى نطاق ادب النخيل في كتب اللغة والادب والتاريخ والمحاضرات والاسمار والطرائف والفقه والحديث ودواوين الشعراء ، فان كثرة كاثرة من ادب النخيل موزعة على عشرات من امهات المراجع والدواوين ، ولكن قارىء اليوم لا يستطيع ان يرجع اليها او يقع عليها . فاذا جاء اليوم مؤلف مكب على البحث والتنقير ليخرجها لنا من بطون هذه الكتب ، فانه في الحق قد اسدى الى جيل اليوم خدمة جليلة بجمعه ادب النخلة ما بين دفتي كتاب واحد مبوب مقسم ، يرجع اليه ، ويستأنس به ، ويعول عليه .

والحق ان سلسلة البحث في ادب النخيل لم تنقطع في الفكر العربي ، وكيف تنقطع والعرب مشدودون الى هذه الفرسة الكريمة باوتاد واسباب ؟ فقد ذكرها كتاب الله في غير موضع ، ومنها قوله تعالى : « والنخل باسقات لها طلع نضيد » ، وقوله في سورة مريم « وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » ومن هنا سميت النخلة : شجرة العذراء ، واختار المؤلف ذلك الاسم عنوانا للكتاب . ولقد الف بعض المحدثين والمعاصرين في النخل من نواح غير التي كتب فيها الاستاذ توفيق الفكيكي ، فهو هنا يؤلف على طريقة الجمع والتصنيف ، وهو هنا يمزج اللغة بالادب والتاريخ والشعر ، على حين نرى كتابا عن (النخيل والتمور في العراق) للاستاذ عبد الوهاب الدباغ العراقي يطبع سنة ١٩٥٦ ، ونرى كتابا آخر عن (التمور قديما وحديثا) للاستاذ جعفر الخليلي يطبع في العراق سنة ١٩٥٦ ، ونرى كتابا ثالثا بعنوان (النخل في تاريخ العراق) للاستاذ المؤرخ العراقي عباس العزاوي .

ولا شك ان هذه الكتب وعشرات غيرها في القديم والحديث كانت من المصادر التي رجع اليها الاستاذ توفيق الفكيكي ، فقد سجلها في ثبت مراجعه بنهاية الكتاب ، ولكننا لاحظنا انه فاته بعض المصادر الهامة لاستكمال بحثه ، فهناك في المراجع القديمة كتاب « نهاية الارب في فنون الادب » للنويري المصري الموسوعي الشهير ، حيث نجد في الجزء الحادي عشر من هذا الكتاب الضخم فصلا طويلا في (النخل وما قيل فيه) يبلغ بضع عشرة صفحة ، ولا شك ان به فوائد لم ترد فيما جاء في كتاب الاستاذ الفكيكي ، وهناك في المراجع الحديثة رسالة جليلة بعنوان (النخيل في مصر) كتبها الباحث النباتي الدكتور محمد بهجت وكيل وزارة الزراعة المصرية سابقا بالاشتراك مع توماس وليم براون مدير قسم البساتين بمصر سابقا . وتكاد تكون هذه الرسالة هي الكتاب العلمي الوحيد في النخيل عامة ، ونخيل مصر خاصة . وهذه الرسالة على ما فيها من علم ونبات وفسيولوجيا وامراض نباتية كان يمكن ان تزيده ثروة الى كتاب الاستاذ توفيق الفكيكي لو انه اطلع عليها .

واهتمام الاستاذ الفكيكي بالنخلة وادبها عامة يفسره لنا ذلك المركز الممتاز الذي تحتله العراق في زراعة النخيل وانتاجه العالمي ، ففي العراق اكثر من ٣٢ مليون نخلة على حين يبلغ تعداد النخيل في العالم كله ٨٧ مليونا ، فهذه النسبة العالية للانتاج العالمي توضح لنا سر اتجاه الاستاذ الفكيكي الى النخلة وادبها . على ان الموضوع في ذاته طريف ممتع ، فان النخلة شجرة كريمة ، مباركة ، نافعة ، جميلة الشكل ، باسقة القوام ، فكانت في شكلها كالمظلة او المروحة ، وفي استقامتها كالصارى ، وفي تفرعها كالمروحة ، وفي الوان بلحها ، ونظام سعفها ، وتنضيد طلعها مصدر الهام لكثير من الشعراء في الجاهلية وفي الاسلام حتى يومنا هذا . ولم نعدم ان نجد في ديوان العرب شعرا في النخلة لامرىء القيس والنابغة ولبيد واحيحة بن الجلاح وبشر بن ابي خازم والفرزدق وابي نواس وعبد الصمد بن المعذل ، بجانب شعر للمعاصرين والمحدثين من امثال جواد الشبيبي والرصافي وعلي الشرقي ومحمود الحبوبي والمهدي الجواهري وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة ، ومحمود حسن اسماعيل ، وعلي محمود طه ، ومحمد هارون الحلو ، وعبد العزيز عتيق ، وعلي الجارم ، ومحمد الاسمر ، ومحمود غنيم ، ومفدي زكريا الجزائري وغيرهم ممن لا يتسع هنا المقام لذكرهم .

وقد رجع الاستاذ توفيق الى دواوين هؤلاء الشعراء ورصدها كذلك في ثبت مراجعه التي زادت على مائة وستين مرجعا ، وهو عدد كثير قد لا يؤمن معه العثار في ذكر الكتب ونسبتها الى اصحابها ، وهو ما حدث فعلا ، فقد ذكر في صفحة ٢٠٦ ابيات الشاعر محمود غنيم في الريف وجماله ونخيله ، ثم ذكر في الامس انها من ديوانه « اللهب المقدس » ، مع ان هذا الديوان هو للشاعر الجزائري الثائر مفدي زكريا .

وفي صفحة ٢٦ ذكر في الهامش ـ كما ذكر في جريدة المراجع ـ ان كتاب « المجازات النبوية » للشريف الرضى تحقيق محمد عبد الغني حسن ، وهو فضل لم يكن لي حظ المشاركة فيه ، فان الذي حققته هو كتاب « تلخيص البيان في مجازات القرآن » للشريف الرضى ، اما المجازات النبوية فمن تحقيق المرحوم الاستاذ محمود مصطفى . وبمناسبة المراجع

واصحابها نرى الاستاذ الجليل الفكيكي قد يذكر في المتن اسم الاديب او الباحث دون ان يشير في الهامش الى اسم مرجعه . وقد يكون للباحث اكثر من كتاب ، فذكر اسمه دون اسم مرجعه لا يفيد شيئا اكثر من ان يعنى الباحث . ففي صفحة ٥٥ أستشهد الاستاذ بكلام للدكتور احمد محمد الحرفي عن بعض مشاهده للنخيل في بلاد العرب ، ولم يذكر لنا اسم الكتاب ، وهو : (اغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي ـ مطبعة نهضة مصر) .

وجميل جدا ذلك الفصل الذي عقده الاستاذ المؤلف عما قيل في اجزاء النخلة من اللغة . فهو احياء لمعجم النخيل الذي يكاد يندثر ، ولو انك سألت عربيا اليوم عن اجزاء النخلة او سعفها وكربها وحجارها وعرجونها وبلحها لما عرف من ذلك الا نادرا ، وتنحصر هذه المعرفة في المعجم العامي ، اما الفصيح فندر من يعرفه . ولهذا فرحت كل الفرح بهذا الفصل الذي رجع فيه المؤلف الى « المخصص » لابن سيده ، والى « الافصاح » للاستاذين حسين يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدي . ولكن شاء الله ان لا يجيء هذا العمل على تمامه ، فقد اجتمع عليه عاملان افسداه وقللا من الافادة به : اما اولهما فترك الضبط بالحركات او الحروف فاصبح القارىء لا يدري ان كانت هي « الكباسة » من النخلة بضم الكاف ام بكسرها ـ والصواب طبعا الكسر ـ كما اصبح القارىء لا يدري ضبط كلمة « الكرب » ـ وهو اصول سعف النخلة ـ فقد يقرؤها القارىء ـ وهو معذور ـ على غير وجه : بضم الكاف او فتحها او كسرها ، وبضم الراء او فتحها او كسرها او سكونها ... والصحيح طبعا : الكرب بفتح الكاف والراء . واما ثاني العاملين فهو ذلكالتحريف المطبعي الكثير الذي ضاع معه وجه الصواب في القراءة الصحيحة لمفردات لغة النخيل . ولو ان الاستاذ الفكيكي ـ وهو الحريص على لغة العرب ـ رجع الى ضبط المفردات بالشكل لكان من صنيعه هذا عمل لغوي جليل له قيمته وله خطره في اثراء الكتاب واثراء القارىء بحصيلة لغوية مضبوطة في ادب النخيل ، كما نجده مثلا في كتاب « نهاية الارب » وفي كتاب « الافصاح » الذي يمكن أن نطمئن اليه بحق ، وان نستشيره حين يعوزنا البحث عن لفظة مطلوبة .

ولقد كنت على نية ان احصي هنا الالفاظ التي وقع فيها تحريف مطبعي ، ولكني رأيت ان الاحصاء لا ياتي عليها ، فهي فوقه ... ولهذا اكتفيت بهذه الاشارة ، وان كان الاستاذ الفكيكي قد وضع في ذيل الكتاب جدولا بالخطأ والصواب ، الا انه ـ على طوله وكثرته ـ لا يسد خللا ، ولا يقوم عملا .

والحق ان كثرة الاخطاء المطبعية والتحريفات في مثل هذا النوع من الكتب مما يقل معه وجه الانتفاع بها والافادة منها ، فهي عون على اضطراب القارىء وتضليله ، اكثر مما تفيده في الجمع والتحصيل ، لانه تحصيل بلا تحقيق ولا تدقيق .

ولقد سرت اخطاء الطبع من المعجم اللغوي للنخيل الى شعر النخيل كذلك ، فجاء اكثر ما في الكتاب من شعر النخلة مشوها ، أو مبتورا ، او مكسورا .

ففي صفحة ٩٦ هذا البيت للشاعر العراقي عبد الغني آل جميل :

ان رعىالله نفس لمترد مورد القذى   وتصدى وفي ظل الهجير ظليلها

وكلمة « ان » في اول البيت زائدة طبعا ، والصواب حذفها .

وفي صفحة ١٠٤ هذا البيت لابي نواس :

كاني بك فوق الجسر منتصبا   على جواد قريب منك في الحسب

والصواب : كانني بنونين اثنين حتى لا ينكسر الوزن .

وفي صفحة ١٤٦ هذا البيت لاحيحة بن الجلاح :

يلوموني في اشتراء النخل قو   مي وكلهم يعذل

وهو مكسور وصوابه :

يلومونني في اشتراء النخيـ   ـل قومي وكلهم يعذل

وسنكتفي خوف الاطالة بذكر ارقام الصفحات التي جاء فيها الشعر

مكسورا غير مستقيم : (٩٢ ـ ٩٦ ـ ١٠٤ ـ ١١٣ ـ ١١٨ ـ ١٤١ ـ ١٤٦ ـ ١٦٤ ـ ١٦٨ ـ ٢٠٨ ـ ٣٣ ـ ٣٦ ـ ٤٠) .

ومن اخطاء الطبع الكثيرة في هذا الكتاب ـ على الرغم من جودة الورق وجدة الحروف وجمالها ـ ما وقع في بعض النصوص كاملة ، حتى اضطربت اوائلها باواخرها ، وتداخلت اعجازها مع هوادبها ، فلا تعرف للنص اولا من آخر ، ولا بداية من نهاية ، ولا سطرا من سطر . ومثال هذا ما وقع في صفحة ١٢٠ سطر ١١ (جرن التمر في الجرين : اي في المربد ـ المسطح ـ ومن دريد . الذي يصعد عليه لاصلاح النخلة ، وقطف ثمارها) وهذا كلام لا معنى له ، وصوابه كما جاء قبل ذلك في الصفحة نفسها : (جرن التمر في الجرين : اي في المربد ـ المسطح ـ ومن المجاز: ضرب الاسلام بجرانه اي : ثبت واستقر) . فانظر كيف حل سطر مكان سطر ، او حذف في عملية الجمع سطر ووضع مكانه سطر آخر ، فجاء الكلام مضطربا متهافتا لا معنى له .

ومن قبيل الاضطراب في المتن ما جاء من الاضطراب في احالات الهوامش على صلب الكتاب ، فانها في اكثر من موضع مختلة غير مضبوطة ولا جارية على اقدارها . ومن ذلك الاحالة رقم ٢ في هامش صفحة ١٤٣، فقد احال الى كتاب : ادب واجتماع للدكتور محمد صبري ، مع ان موطنها الحقيقي في هامش صفحة ١٣٧ حيث نقل المؤلف كلاما جميلا للاستاذ الدكتور محمد صبري في النخل .

لقد وقعت في هذا الكتاب هفوات وهفوات كنا نود ان نبعده منها ، وننزهه عنها ، فان كتابا في اللغة والادب والشعر لحري ان يخرج على اكثر الوجوه سلامة ودقة وضبطا وصحة ، حتى تعم الفائدة منه ، ويصح الاخذ والنقل عنه ، ويحسن الاستشهاد به ، ولكنها هفوات كان للمطبعة نصيب كبير في احداثها ، وان كان ذلك لا يخلي المؤلف من مسئولية ، ولا يرفع عن كاهله عبئا ... على ان ذلك لا يمنعنا ان نقول ونكرر ان الكتاب شيء طريف جدا في موضوعه ، وان تقسيمه جاء على وجه يحقق الفائدة منه ، وان فيه من جهد المراجعة والمطالعة ومعاودة المصادر ما لا ينكره الا مكابر ، فان الاستاذ الصديق العالم الباحث توفيق الفكيكي قد حشد لكتابه حشدا ضخما من المصادر ، وقد قرأها بلا ريب ، واخذ منها مادة طيبة لكتابه ، وربط بين القديم والحديث ، والماضي والحاضر ، والشعر والنثر ، والمعارف والطرائف . انظر الى الفصل الذي عقده عن « الكنى والالقاب بالنخل والتمر » ، فهو فصل ممتع مفيد طريف ، نجد فيه اسماء : بنو نخلان ، والنخلى ، وابو نخيلة ، وتمير ، والتمار ، وعرجون . فممن سمي باسم « نخلة » والد الشاعر اللبناني الكبير رشيد نخلة ، وجد الشاعر الرقيق والاديب البحاثة اللغوي المعاصر الاستاذ امين رشيد نخلة . وممن لقب بعرجون ـ وهو من اجزاء النخلة ـ الشاعر محمد بن عبد الله بن عبد الواحد . على ان الاستاذ الفكيكي قد فاته ان يشير هنا الى الاستاذ العالم الفقيه المصري المعاصر صادق عرجون صاحب كتاب عثمان بن عفان وغيره من الكتب .

ومن الفصول الطريفة في الكتاب ذلك الفصل عن اثارة النخل لحنين الشعراء . ومن الشعراء الذين اثارت النخلة لواعج حنينهم الى اوطانهم واحبابهم ومرابع صباهم وشبابهم ، ومرائع لهوهم : الحسين بن علي النمري ، والشيخ صالح التميمي ، ويحيى بن احمد الاعرجي من القدامى، والشيخ محمد علي اليعقوبي ، والمهدي الجواهري ، وعباس الملا ، ومحمد علي الحوماني من المعاصرين .

ومن الفصول الممتعة كذلك تلك الفصول عن النخل في مقامات الحريري، ومقامات بديع الزمان الهمزاني ، والف ليلة وليلة ، فهي امتداد لما جاء في هذا الكتاب الثمين عن النخل في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف وفي الشعر العربي في القديم والحديث .

بقيت لنا كلمة نعاتب او نداعب بها صديقنا العلامة الباحث المحقق الاستاذ المحامي توفيق الفكيكي فقد ذكر في البحث الوجيز عن عدد النخيل في العالم ان في مصر ١٠٨ مليون نخلة ، وان بالعراق اكثر من ٣٢ مليون نخلة . ولا ادري لماذا تحيز الاستاذ وجار على مصر فنقص عدد النخيل بها وهبط به هبوطا كبيرا ، مع ان احصاء عالميا دقيقا عن النخيل في العالم يؤكد ان عدد النخيل في مصر بلغ ٥٠٨٣٠٠٠٠ مليون نخلة سنة ١٩٢٤ (انظر كتاب النخيل في مصر للدكتور العالم محمد بهجت) واني لاحسن الظن بالصديق العربي العراقي الكريم ، واحسب ان هذا العدد الذي ذكره المؤلف محمول على اخطاء الطبع التي فشت في الكتاب ، فلم يسلم منها حتى الرقم في الحساب .

والله يجزيه احسن الجزاء بما اسدى للادب واللغة والتاريخ .

القاهرة　　　　محمد عبد الغني حسن

•

مخطوطة ديوان سعد الدين بن عربي

فيما عثرت عليه في مكتبة الآثار العراقية ، بالمتحف العراقي نسخة نفيسة من ديوان « سعد الدين بن عربي » الحاتمي الطائي . (٦١٨ هـ ـ ٦٥٦هـ) ، نجل العالم الاندلسي الصوفي الشهير الشيخ الاكبر محي الدين بن عربي (٥٦٠هـ ـ ٦٣٨هـ) . المتوسد تربة جبل قاسيون بدمشق مع ولده الشاعر .

ولقد نوه عن هذه المخطوطة صاحب الايادي الادبية المشكورة البحاثة الاستاذ (كوركيس عواد) عضو المجمع العلمي العراقي . والامين العام لمكتبة المتحف العراقي في دراسته عن المخطوطات الادبية التي تضمها الدار .

واني الآن ساع باحياء هذه المخطوطة وتحقيقها . لان الشاعر صاحبها، لم يدرس من خلال مخطوطة ديوانه ، الا بمقالة مقتضبة كان قد نشرها الباحث الدكتور صلاح الدين المنجد ، منذ سنوات في مجلة (الثقافة) القاهرية . كما عرفها المستشرق الكبير العالم الالماني (بروكلمن) بذيل كتابه (تاريخ الادب العربي) .

ان عمر هذه المخطوطة يدلف الى المئة عام . تملكها صاحبها المرحوم (الاسطواني) الدمشقي في سنة ١٢٩٦هـ . وقصائدها ليست تسير على نظام الاحرف الهجائية . وتزخر باسماء اصحاب بعض الحرف والصنائع ، التي كانت بدمشق في عصر الشاعر . كما انها تضم قصائد وجدانية لطيفة جاء منها في مطلع الديوان قوله :

عفى الله عن عينيك كم سفكت دما　　　وكم فوقت نحو الجوانح اسهما
اكل حبيب حاز رق محبة　　　حرام عليه ان يرق ويرحما
هنيئا لطرف بات فيك مسهدا　　　وطوبى لقلب ظل فيك متيما
تحكمت في قتلي لانك مالكي　　　بروحي أفدي المالك المتحكما

ومن غريب المصادفة ، ان تكون وفاة الشاعر عام سقوط بغداد بايدي التتر ، وتدفق جيوشهم على الشرق العربي عام ٦٥٦هـ !!

وارغب ان اذكر في هذه المناسبة ان الاستاذ الامير الجليل السيد جعفر الحسني الامين العام للمجمع العلمي العربي بدمشق . رحب برسالة المجمع لنا في احياء ما يتعلق بهذا الموضوع ونشره ، وكل ما له علاقة بالتراث العربي . وامدنا ببعض صفحات من مخطوطة الديوان مصورة بالميكروفيلم هي كل ما لدى المجمع بدمشق .

فللاستاذ الامين الكريم الوافر من الشكر ، والكثير من التقدير لهمة الاعضاء الافاضل من اسرة المجمع المحترمين .

ندعوه تعالى ان يهييء لنا الفرص ، ويسعفنا بالظروف الحسنة ، لنقوم باحياء ما له صلة (بتراث الاندلس العربي) . ونخرج ما انزوى من مطاوي الخزائن والنسيان . من جميل ما ابقاه ابناؤه من خالد الاثر ، ومن بليغ الشعر والنثر .

بغداد　　　　محسن جمال الدين

سلاسل الماضي

رواية ـ تاليف نزار مؤيد العظم ـ تقديم الدكتور عبد السلام العجيلي ـ ٣٢١ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع ابن زيدون بدمشق

هذه الرواية يعتبر صدورها ـ بصدق واخلاص ـ لبنة جديدة في صرح مجدنا الروائي السوري ، على قلة المحاولات التي سبقت « سلاسل الماضي » ... ومع الاسف فان هذه المحاولات ـ منذ ربع قرن حتى اليوم ـ لا تكاد تبلغ اصابع اليدين ، وابرزها واوفرها نجاحا محاولات الدكتور شكيب الجابري: نهم، قوس قزح، قدر يلهو، وداعا يا افاميا ، والدكتور عبد السلام العجيلي : باسمة بين الدموع ، ومحاولات اخرى

موضوع هذه الرواية يدور حول الصراع العنيف بين جيل محافظ على القديم ، ملتزم جانب العادات والتقاليد ، وجيل منطلق متحرر من قيود الماضي وسلاسله . انها قصة « نبيل » الشاب الذي احب فتاة من مذهب آخر ، متحررة من التقاليد ، تقود سيارتها بنفسها ، وتسافر وحدها من بلد الى اخر ، وتمشي عارية النحر والذراعين ، مؤمنة بحق المرأة في المساواة والحرية والانطلاق . لقد احب هذا الشاب «مادلين» ، وحاول طويلا ان يوفق بين تحررها والتزامه ، ولكنه باء بالفشل ، وارغم كلاهما في النهاية على التخلي عن صاحبه .. وهكذا تحطم جناحا كيوبيد على صخرة التقاليد والعادات . ولعل من ابرز فشل حب نبيل ومادلين ، ان الفتاة استسلمت لخطيبها في فترة الحب ، استسلاما شبه تام ، وهذا الاستسلام مدعاة لفشل معظم زيجات الحب في شرقنا المحافظ ، الحريص على العادات والاخلاق .

ابرز ميزات هذه الرواية بساطة السرد ، وصدق الرواية ، حتى لتكاد احداثها ووقائعها تنادي في كل صفحة بالصدق والواقع . اننا نكاد نحس بان ابطال الرواية يعيشون بيننا ، بل نكاد نراهم ونلمسهم لوضوح الصور والظلال ، وكثرة الاضواء التي القاها المؤلف الاستاذ نزار مؤيد العظم على البطلين الشابين ، في حين ظل باقي ابطالها يعيشون كالاشباح، او كما يقول المصورون ، ظلت صورهم باهتة مهزوزة .

اما اسلوب الرواية فغاية في الصفاء والنقاء ، يستحق عليه المؤلف الصديق كل تهنئة ، لا سيما في عصر ضعفت فيه اللغة ، وشاعت الركاكة ، وانتشرت العامية والسطحية . على ان سلامة اللغة دفعت احيانا بالمؤلف الى بعض التقعر ، وهي على كل حال افضل كثيرا من الركاكة ، وضعف الاسلوب ، وميوعة الالفاظ .

بعد هذا احب ان اقول ان الاستاذ المؤلف افرط في الحشو والاستطراد ، وقلما تمر صفحة او حادثة في الرواية دون ان يستطرد ليبدي رأيا سياسيا او يعلق على حادث ، او يبدي ملاحظة ونقدا حول موضوع . وكل تعليق او رأي او استطراد يستغرق صفحة او صفحتين. وكان باستطاعة المؤلف الاديب ان يختصر مئة صفحة ـ على ايسر تقدير ـ من روايته دون ان يمس جوهرها ، بل لربما زادها قوة وروعة بهذا الحذف الحميد .

ملاحظة اخرى حول بعض ابطال الرواية احب ان اشير اليها ، هذه الملاحظة تتعلق بالفتاة القروية الشقراء « وضحة » ، التي اقتحمت غرفة بطل الرواية بعد منتصف الليل وراودته عن نفسه ، فاظهر تعففا وطهرا لا مزيد عليهما ، حين امتنع عن مبادلتها عاطفتها وحبها ، وهو الذي يعيش في القرية ، يعاني مرارة الحرمان والظما الى الجنس . ان هذا التعفف « العجيب » يجعلنا نؤمن بان الاستاذ المؤلف يريد ان يصور الانسان ـ في هذه النقطة بالذات ـ كما يجب ان يكون ، لا كما هو ، مستسلم لشهواته ، خاضع لنداء الشيطان .

وبعد فان اقدام الاستاذ العظم على اخراج روايته هذه بثوبها الانيق ، وحجمها الضخم ، وطباعتها الفاخرة ـ في هذا الظرف ـ يعتبر تضحية ومغامرة نرجو لها النجاح من اعماقنا ، ونهنئه عليها من صميمنا .

دمشق — **عبد الغني العطري**



● الترويح فن وزيادة ـ تاليف هـ. دان كوربن ـ ترجمة سعيد حشمت والدكتور حلمي ابراهيم ـ مراجعة عادل طاهر ـ تقديم محمد علي حافظ ـ مصمم الغلاف محمد طلعت المصري ـ ٥٧٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ـ مطبعة مؤسسة طباعة الالوان المتحدة بالقاهرة .

● نشيد الرخام ـ مجموعة من قصائد النثر ـ نقولا قربان ـ الغلاف من تصميم المؤلف ـ ١٣٦ صفحة ـ منشورات دار الروائع بيروت ـ مطابع الغريب بيروت .

● الانصاريات ـ مجموعة شعرية ـ عبد القدوس الانصاري ـ تقديم الشيخ هاشم دفتر دار المدني ـ ٦٨ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة الانصاف في جدة .

● خيوط من رماد ـ مجموعة قصص ـ تاليف محمد زهير الباشا ـ اللوحات بريشة ممدوح قشلان ـ ١٥٢ صفحة ـ مطبعة سميراميس بدمشق .

● قلعة طروادة التاريخية وصلتها بالهجرات العربية القديمة الى اوروبة ـ تاليف محمد معروف الدواليبي ـ ٨٤ صفحة ـ مع عدة لوحات ورسوم وخرائط اثرية ـ منشورات مكتبة لبنان بيروت ـ شركة ابي راميا للطباعة بيروت

● اصابع الفجر ـ مجموعة شعرية ـ خليل فاخوري ـ تقديم بولس سلامة ـ ١٤٤ صفحة ـ مزين بالرسوم ـ مطبعة دار الكتب بيروت

● مسرحيات موليير ـ ترجمة احمد الرفاعي ـ ٢٤٨ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي بيروت ومكتبة النهضة بغداد ـ مطابع دار الغد (؟)

● التصوف في تهامة ـ تاليف محمد بن احمد عيسى العقيلي ـ ١٢٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع الاصفهاني وشركاه في جدة .

● قنوط ـ مجموعة شعرية ـ صفاء الحيدري ـ مصمم الغلاف واللوحات الداخلية بديع باباجان ـ ١٢٨ صفحة ـ دار مطبعة التمدن ببغداد .

● نفحات شعرية في العزة الوطنية ـ مجموعة شعرية ـ النقيب حبيب عبد الله بركات ـ تقديم الشيخ عبد الله العلايلي والاب حنا فاخوري والاب بولس نجم ـ مصمم الغلاف والرسوم الداخلية حسان حامد ـ ١٢٤ صفحة ـ مطابع جوزف سليم صيقلي ببيروت .

● روما وامبراطوريتها ـ المجلد الثاني من تاريخ الحضارات العام ـ باشراف موريس كروزيه ـ تاليف اندريه ايمار وجانين اوبوايه ـ ترجمة يوسف اسعد داغر وفريد داغر ـ ٩١٢ صفحة ـ حجم موسوعي مجلد بالقماش ـ مع لوحات وخرائط ـ منشورات عويدات بيروت ـ مطابع دار الارشاد للطباعة بيروت .

● بيروت والنافذة البيضاء ـ مجموعة شعرية ـ هشام الكرمي ـ ١٢٨ صفحة ـ مصمم الغلاف رضوان الشهال ـ منشورات عويدات ببيروت ـ الشركة الحديثة للطباعة بيروت .

● قصائد وبرامج وطنية ـ مجموعة شعرية ـ صفاء الحيدري ـ ١٣٦ صفحة ـ مطبعة الرهاب ببغداد .